رسائل جيرترود بيل

١٨٩٩ - ١٩١٤

حائل

ترجمة
رزق الله بطرس

رسائل
جيرترود بيل

الفصل الخامس

الرحلة إلى حائل
1913 - 1914

(154)

إلى الوالد: لندن 28 تشرين الأول 1913

في الليلة الماضية ذهبت إلى حفلة سارة عند غلينكونرز (Glenconners)، وقبل أن أصل بقليل(كالمعتاد) هاجمت 4 نساء من المناديات بحق التصويت للمرأة أسكويث (Asquith) (رئيس الوزراء من 1908-1916) وأمسكن به. فأمسك لورنس اثنتين منهما ولوى أذرعهما حتى صرختا. عندئذٍ عضته واحدة منهن في يده حتى نزف دمه. وعندما أخبرني حكايته كان مبللاً بدمه. أحرزت انتصاراً كبيراً يوم الاثنين. أحضرت إدوين مونتاغيو (Edwin Montagu) إلى الغداء كي يقابل الماجر أوكونور (O'Connor) وتحدث هذا الأخير مدة ساعة ونصف حول كل مسائل الحدود بامتياز. جلس إدوارد مونتاغيو وأصغى مدة ساعة ونصف ثم لخص المسألة بكاملها بتفهم كامل. كنت مبتهجة. ليس هو القادر فقط. بل هو الحقيقي. إنه رجل دولة....

[في يوم 13 تشرين الثاني تنطلق نحو الشرق بطريق مرسيليا].

---

(155)

إلى الكاتبة: الإسكندرية، 20 تشرين الثاني 1913

الإسكندرية ليست مكاناً عظيماً لكنها تجعلني أشعر أنني أعود إلى أعماق الشرق. آه يا شرقي العزيز!! أظهر سائق العربة التي أقلتني البارحة كل العناية التي يُعرف بها الخدم الشرقيون، وأخذني لنزهة في قناة كريهة الرائحة، لأنني كنت متعبة من التفرج على إحدى المقابر وألح على أن أشرب فنجاناً من القهوة تحت الأشجار ليقويني من أن أذهب إلى المتحف. وبالفعل قواني ذلك الفنجان لا بل هو الذي قواني (أعني السائق).

---

(156)

إلى الكاتبة: دمشق 27 تشرين الثاني 1913

البارحة أرسلت خبراً لمحمد البسام لأقول له إنني هنا.... فجاء ليراني فوراً وأمضى نصف فترة الصباح معي. إنه دعم قوي لي في كل الخطط والتدابير. يبدو أنني حظيت بلحظة محظوظة جداً، فالجميع في سلام، والقبائل التي كانت في حالة حرب منذ أجيال، قد توصلت إلى علاقات طيبة، والصحراء الآن تقريباً هادئة على نحو خارق للطبيعة. بسام يعرف أخبار بعض جمال الصحراء الجيدة وجمال الركوب التي تباع رخيصة في دمشق، وهذه تقريباً ضربة حظ كبيرة، لأنني ظننت أنني يجب أن أنتقل إلى

مكان ما في البرية وأساوم لشراء بعض الجمال هناك. بالمختصر أنا بالنادر ما أريد أن أعتمد على هذا الحظ الجيد لكني آمل أن يكون صحيحاً. أنا لست متأكدة بعد إلى أين أذهب أولاً إلى الدروز أو إلى العنزة. لن تكون أي صعوبة في الذهاب إلى أي منهما، لكن قد تكون هناك بعض التعقيدات في الذهاب من أحدهما إلى الآخر. ليس هناك من شيء لا يمكن التغلب عليه. يقول محمد إنه من السهل جداً أن نذهب إلى نجد هذه السنة. فإن كان الأمر كذلك فسأذهب. سأعلمك من مأدبا ـ ابحثي عنها في الخريطة إلى شرق الطرف الشمالي من البحر الميت. سأستمر في الكتابة هنا، وسأبقى على اتصال بك طالما أمكن ذلك.

والآن يجب أن أذهب مع فتوح ونتحدث بشأن الجمال. الطقس رائع جداً.

---

(157)

إلى والدها: دمشق، 29 تشرين الثاني 1913

أرسلت لك اليوم برقية أخشى أنها ستدهشك، أطلب فيها إليك أن تحول برقياً عن طريق ناشنال بانك مبلغ 400 جنيه عن طريق أوتومان بانك (البنك العثماني)في لندن لحسابي في أوتومان بانك(البنك العثماني) هنا. أبرقت لك لأنني لم أكن أعرف إذا كنت أبرقت إلى ناشنال بانك مباشرةً إنهم سيعتبرون الطلب كافياً دون أن يستلموه كتابياً. لكني أسرع في التوضيح لك (وهذا مالا

أستطيع توضيحه في البرقية) أن هذه ليست هدية أطلبها. أود أن أقترض المال من ناشنال بانك. والوضع هو كالتالي: بالقدر الذي أستطيع الاستنتاج فيه وعندي الآن قدر كبير من المعلومات من أطراف عدة، لم يكن هناك سنة مناسبة للسفر في الجزيرة العربية أكثر من هذه السنة. فالصحراء هادئة على نحو كامل ولن يكون هناك أي صعوبة سواء في الوصول إلى حائل - وهي عاصمة ابن رشيد - وحتى إلى مسافة أبعد. بالإضافة إلى ذلك عثرت اليوم على الرجل المناسب كدليل. كان مع السيد كاروثرز (Carruthers) من 3 سنوات. سمعت عنه وامتدحه لي كثيراً. اليوم ظهر عند بسام الذي أخبرني فوراً أنني لن أجد شخصاً أكثر معرفة منه بجميع القبائل العربية. يعتبر عثوري عليه ضربة حظ استثنائية. إنه الشخص الذي كان يجب أن أختاره من بين الجميع. فرص النجاح هنا كثيرة في هذا العمل. أما بخصوص النفقات، أنت تعلم أنني هذه المرة عليَّ أن أبدأ بشراء كل شيء أحتاجه هنا. وبقدر ما أستطيع أن أستنتج سنحتاج 17 جملاً (اشترينا حتى الآن واحداً أو اثنين). وتكلف هذه الجمال 13 جنيهاً وسطياً للجمل الواحد بما في ذلك معداتها. يقول بسام عليَّ أن أحسب أنني سأنفق 50 جنيهاً على الطعام الذي سنأخذه معنا، و50 جنيهاً أخرى للهدايا مثل العباءات والكوفيات للرأس، والأقمشة القطنية وإلخ..... . تبدو هذه نصيحة حكيمة لأن الأشياء تستحق أكثر مما هي هنا، والمنديل الذي ثمنه 5 شلنات يعتبر هدية محترمة من الصحراء. ويبلغ الجميع 321 جنيهاً. يقول بسام إنني يجب أن آخذ معي 80 جنيهاً، وأن أعطي 200 إلى تاجر نجد الذي يسكن هنا

مقابل كتاب اعتماد يسمح لي أن أسحب المبلغ في حائل. أظن أن هذين المبلغين محسوبين بسخاء، لكنني لا أريد أن أزود نفسي بكمية أقل من المال لئلا أصبح غير قادرة على فعل أي شيء عندما أصل إلى قلب الجزيرة العربية (إن شاء الله) بسبب نقص التمويل. ترى الآن أنني وصلت إلى مبلغ 601 جنيهاً. لا أستطيع أن أشرح كل هذا في برقيتي لذلك لم أحاول أن أشرح شيئاً لكنني آمل ألا تقول: لا. ليس من المحتمل أن تفعل، لأنك والد حبيب لن تقول لا لأكثر المطالب كلفة ـ ربما كان من المؤسف أنك لا تفعل ذلك. أنا عملياً أستنفذ جميع دخلي للسنة القادمة لهذه الرحلة، لكنني إن جلست هادئة أكتب الكتاب عنها في السنة القادمة، لا أرى سبباً في عدم مقدرتي على رد المبلغ كاملاً. والكتاب سيكون حتماً ذا قيمة إنْ أصل إلى نجد وما بعدها فعلاً. على العموم آمل أن تظن أن ذلك يستحق طالما أن الظروف جيدة جداً. سأحاول أن أبقى على اتصال معك. في نهاية الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الأولى لن يكون لديَّ أي صعوبة في إرسال الرسائل لك عن طريق سكة حديد الحج، وسأقوم بالتدابير الخاصة بإرسال رسائلي من هنا. وبعد ذلك أخشى ألا أكون قادرة على استلام أخباركم بالرغم من أنني سأحاول أن أحصل على دفعة واحدة من الرسائل في حائل. أظن ليس هناك من شك أنني سأستطيع أن أوصل الأخبار لكم. يستغرق ذلك حوالي الشهر من محطتي قرب سكة الحديد الحج إلى حائل ويعني ذلك ستصلكم أخباري بعد مرور شهرين أو شهرين ونصف. وإذا ذهبت نحو الجنوب فسأحاول إرسال الأخبار من مكان ما على الخليج

العربي. على أي حال سأرسل رسالة حيث أستطيع أن أجد رسولاً. عليَّ أن أخبرك أنه قد هطلت أمطار خريفية جيدة جداً لذلك سنجد الكثير من الماء السطحي والعشب أيضاً.

أشعر بتحسن كبير بعد أربعة أيام هنا وأنا على وشك أن أغوص في الشرق.

هناك شيء واحد أريد أن أخبرك به. لقد اتفقت مع السيد كمبرباتش (Cumberbatch) أنني عندما أصل إلى أي مكان أستطيع ان ابرق منه سأبرق له وسيتصل بك. لكن طبعاً لن يكون مثل هذا المكان حتى أصل إلى الساحل في مكان ما. وكذلك سأكتب له من هنا وأخبره بالضبط ما أنوي فعله وأدعه يعلم أنك ـ أنت وهو ـ في أي وقت تريدان معلومات عني فالشخص الأفضل الذي تستطيعون الحصول على ذلك هو البسام[1]. استطاع السيد كمبرباتش أن يتصل به سراً. فلديه كل أخبار الصحراء ويعرف بالضبط ما سأفعل وهو متأكد تقريباً من مكان وجودي. لكن لا تذهب إليه لتسأله ما لم تكن الأخبار عني قد تأخرت كثيراً. يا والدي العزيز جداً لا تظن أنني مجنونة أو غير معقولة لدرجة

---

(1) محمد البسام: واحد من أكثر كبار تجار العالم العربي في القرن التاسع عشر أهمية وكانت أسرته مقربة من سلالة أمراء ابن رشيد والمسيطرة في جزيرة العرب آنذاك. وقد توزعت مؤسسات البسام بين مكة وجدة ودمشق وبغداد وكذلك في بومبي، التي كانت تُرسل إليها خيولاً عربية يشتريها الجيش الانكليزي وكذلك كان للأسرة فروع تجارية في القاهرة وطرابلس أيضاً، بل إنها امتلكت لبعض الوقت سفينة بخارية خاصة بها أبحرت بين ميناءي البصرة وجدة. فهذا الرجل ذو اطلاع واسع عن البدو ومعلوماته ذات قيمة كبيرة عن القبائل وخاصة قبائل الجزيرة العربية الأصيلة. [اوبنهايم البدو ج1 ص57] (ماجد شبر).

كبيرة، وتذكر دائماً أنني أحبك أكثر مما تستطيع الكلمات قوله. أنت ووالدتي. أعلم أن الأمور تسير بأحسن من المتوقع لكن لا تتكلم عن نجد للغرباء فقد لا تنجح خطتنا.

---

(158)

إلى الكاتبة: دمشق 5 كانون الاول 1913

لا أظن أنني سأنطلق حتى يوم الجمعة القادم، 12، وهذا سيؤجل كل التواريخ التي أعطيتها للوالد حتى أسبوع آخر. هناك الكثير من الأشياء التي سأشتريها والأمور التي سأدبرها. وفي ذات الوقت أقضي أيامي بسرور. كان الطقس رائعاً وعملت مع أداة القياس كل الصباح على السطح وذهبت للمشي بعد الظهر. مشينا وصعدنا تلة وتسلقنا قمة عالية حيث نرى مناظر دمشق وحدائقها التي لا تزال ملونة باللون البني والذهبي بأوراق الخريف ثم مباشرةً إلى الصحراء حيث سأذهب. رأيت التلال الصغيرة البركانية إلى الجنوب الشرقي حيث سأقوم بالمراحل الأولى لرحلتي، وتمنيت لو أكون فيها.

زرت الكثير من أصدقائي المسلمين واستقبلوني بترحاب كبير. كلهم ودودون وذوو لطف كبير. هناك شخص أو اثنان أريد رؤيتهما، لكن الطين جعل الزيارة صعبة، إلا إلى البيوت القريبة. لقد سمنت أكثر مما كنت عندما جئت، بسبب الكسل من جهة، على ما أظن، ومن جهة أخرى بسبب الوجبات الكثيرة من اللبن

الرائب الحامض، التي هي من دون شك أفضل طعام في العالم. أتساءل عما تفعلين وأين أنت. من الصعب أن أفكر فيك وأنت تقومين بالتحضيرات لعيد الميلاد. حبي إلى موريس.

---

(159)

إلى الكاتبة: دمشق، 12 كانون الاول 1913

كان من الواجب أن تكون جمالي قد انطلقت اليوم ـ لكننا تأخرنا بسبب بعض الحوادث المؤسفة المتعبة. أُصيب فتوح بالملاريا وعليّ أن أنتظر يوماً أو يومين آخرين. . . . تناولت العشاء في حي السوق المحلي الميدان مع دليلي القديم محمد المَرذوي. اجتمع حشد كبير للقائي بمن فيهم وكيل ابن الرشيد. هذا الأخير شخص غريب شاب طويل جداً ونحيف يتلفع عباءة مطرزة بالذهب ورأسه مغطى برداء من شعر الجمل كبير مطرز بالذهب رمى ظلاً على وجهة الضيق الماكر. اتكأ إلى الخلف بين وسائده ونادراً ما كان يرفع عينيه، وكان يتكلم بصوت ناعم بطيء باللغة العربية الفصحى النقية، لكن بعد قليل رفع نفسه وقص حكايات رائعة عن كنوز مخبوءة وثروات قديمة وكتابات غامضة في وسط الجزيرة العربية تستطيعين تصديق ما تشائين منها. كان الرجال على كلا الجانبين يتهامسون من وقت لآخر «يا لطيف يا منجد، يا رحمن يا حاضر في كل مكان». بينما هم يصغون إلى

هذه الحكايات. وأخيراً أكلنا معاً الخبز والملح الذي يمكن أن يكون بيننا وثم ـ ثم رجعنا جميعاً على الحافلة الكهربائية.

---

(160)

إلى الكاتبة: 15 كانون الاول 1913

أصابنا سوء حظ كبير. مرض فتوح منذ أسبوع ونخشى أن يكون ذلك الحمى التيفوئيديه. لحسن الحظ زوجته هنا. أجّلتُ رحيلي من يوم إلى يوم والآن أنا ذاهبة ـ غادرت جمالي اليوم وأنام عند عائلة ماكينونز وأبدأ غداً. لا أزال آمل في خلال ثلاثة أسابيع أو حوالي ذلك عندما أقترب من سكة الحديد، أن يكون فتوح قادراً على الالتحاق بي وهو طبعاً لا يشك لحظة واحدة أنه قادم. إنه لأمر فظيع جداً. لقد جلبت ولداً ليأخذ مكانه ـ يأخذ مكانه بالفعل. يبدو نشيطاً وسريعاً، أُعجبتُ به ولا أشك أن خيمتي بعد يوم أو اثنين ستكون في نظام وترتيب.

---

(161)

إلى الكاتبة: 20 كانون الأول 1913

انطلقت بأمان يوم 16 من عند عائلة ماكينونز الطيبة، وركبت مدة ساعتين، حظيت بجمالي وحمّلت ماء وانطلقنا في الصحراء. خيمنا باكراً على بعد ساعة أو أكثر إلى الجنوب من الضمير وكان

حسناً ما فعلنا، لأن الليلة الأولى في المخيم تعني كثيراً من الفرز، وعندما لا يكون معك رجل واحد كان قد سافر مع أوربي سابقاً بإمكانك أن تتخيلي كيف تكون الأمور. كان علي أن أريهم كل ما يجب أن يفعلوا، وأجد كل شيء بنفسي - لأن فتوح لم يكن موجوداً - وهو الذي حزم كل شيء. لم يكونوا يعرفون كيف تُنصب خيامي. ولا كيف يسلقون البيضة. لكنهم جميعاً تواقون لإرضائي وراغبون في التعلم، وبفضل الصبر والتعليمات التي تعطى في حينها، أحصل على كل شيء أريد بالطريقة التي أريد. أمطرت السماء وهبت الرياح طيلة ليلة 16 ويوم 17. كان من المستحيل أن نسافر إذا كان الشيطان يلاحقنا (وكنت أخشى أن تبحث عنا السلطات الدمشقية)، لذلك جلسنا هناك نرتجف ونصلح أحمالنا. تعلمت الآن كيف أتحمل الأيام الماطرة في المخيم عندما لا أكون أشعر بالدفء ولا لحظة واحدة عندها تبدو الساعات بلا نهاية. أرسلنا إلى الضمير لنجلب الحطب للرجال والقش المقطّع للجمال والقماش القطني لي، وجلست مع إبرتي أصنع الأكياس لكل مواد مؤنتنا. منذ زمن طويل لم أقم بالخياطة بهذا النشاط. كان الطقس جميلاً في اليوم التالي، ولكن بسبب الخيام المبللة والرجال غير المعتادين استغرقنا ساعتين ونصف لفك الخيام - يئست لكنني بقيت صامتة حتى وقت لاحق، وفي صباح اليوم التالي استيقظنا قبل ساعة ونصف من الوقت الذي انطلقنا فيه وذلك شيء جيد كما يتوقع الجميع. عندي خدم جيدون، كما تعلمين - وإضافة إلى ذلك أعرف المهمة وفوراً اكتشفوا ذلك. وفي اليوم 18 كافحنا مدة ساعة عبر الطين وقنوات

الري الخاصة بالزراعة في الضمير ـ وهو عمل رهيب حيث كانت الجمال تنزلق وتقع. وأخيراً خرجنا إلى الصحراء المكشوفة، والأرض المرتفعة في تلك البلاد البركانية الحجرية، منطقة التلال (Tells)، تحت أقدامنا، ونسينا الطين. سرنا عبرها طيلة نهار الأمس واليوم، وهي منطقة قاحلة من حجارة وتلال بركانية. لم نرَ إلا مخيماً عربياً واحداً على طريقنا كله، خرج رجل راكباً ليعرف من نحن، وعرفنا أنهم واحدة من القبائل نصف الزراعية من قرب دمشق. وبخصوص الماء، فقد أخذناه من بركة مطر من حين لآخر كثيرة الوحل، لكن لا يزال عندي ماء الشرب من دمشق، والخبز والبيض والزبدة، لذلك فإن الصعوبات لم تبدأ بعد. كانت الليلة الماضية باردة جداً، انخفضت درجة الحرارة إلى 28° (فهرنيت)واستيقظت عدة مرات أرتجف. وعندما انطلقنا اليوم في ضباب كثيف كان العشب المتناثر هنا وهناك والشجيرات كلها بيضاء من الصقيع ونحن كنا بلون أزرق للسبب نفسه. لكننا لم نتضرر من ذلك. لم ينقشع الضباب حتى منتصف النهار وذلك ما جعل العمل بالخرائط مرهقاً، لأنني لم أستطع أن آخذ سطوح الارتكاز الطويلة، لكننا عدنا للمخيم في وقت مبكر من بعد الظهر (فقد بدأنا مبكرين) وكانت الشمس الساطعة ببهاء، وأنا الآن أكتب في حمرة الشفق الطويل عند غروب دون غيوم. كنت قد عدت في الصحراء كما لو أنها بيتي. الصمت والوحدة تخيمان حولي كحجاب لا يمكن اختراقه. ليس هناك من واقع سوى الساعات الطويلة من الركوب، والارتجاف في الصباح، والنعاس بعد الظهر، والصخب عند دخول المخيم والتحدث حول نار قهوة

محمد بعد العشاء، والنوم الأكثر عمقاً من النوم الذي تبتكره الحضارة، ومن ثم العودة إلى الطريق من جديد. وكالعادة يشعر المرء بالأمان والثقة في هذه البلاد التي لا يحكمها القانون كما يفعل في قريته الخاصة. معنا رفيق - رفيق من قبيلة الغياث - عثرنا عليه في الضمير كي يكون ضماناً لنا إن قابلنا قبيلة. وكان يجب أن يكون معنا بحق رجل من قبيلة بني(البو) حسان الذي لا يجدي معه رفيقنا من قبيلة غياث لأنهما أعداء ألداء، وإذا التقينا بقبيلة بني (البو) حسان سنأخذ واحداً منهم معنا. جيد، إذا شاء الله! الأرض لنا ولهم ولا أظن أن واحدنا سوف يزعج الآخر. ينمو هنا الكثير من الفطر الجيد. أتناوله مقلياً في عشائي.

---

(162)

21 كانون الأول، سنة 1913 جبل سايس

وصلنا الآن هدفنا الأول وهو مكان غريب جداً، لكنني سأبدأ منذ البداية. كانت الدنيا باردة جداً في الليلة الماضية. انخفضت درجة الحرارة حتى 8 مئوية تحت الصفر وكان من المستحيل أن أشعر بالدفء في الفراش. (ملاحظة هامة: أنا لست مؤهلة لاستكشاف القطب الشمالي، هذا واضح). على أي حال بقيت مستيقظة أرتجف. كانت خيمة الرجال متجمدة من البرد وكان عليهم إشعال النيران تحتها لتفكيك تجمد قماشها. وإلا فإنها ستتكسر عندما يتم حزمها. لكن الشمس سطعت ببهاء وانقشع

الضباب في اللحظة التي بدأنا السير وبعد نصف ساعة شعر الجميع بالدفء. رأينا جبل سايس عند الساعة الثامنة ووصلناه عند الساعة الثانية عشر، ونحن نسير على أرض منبسطة تقريباً مغطاة بحجارة بركانية ـ بلاد منعزلة لا بد أنها ستكون كالفرن في الصيف. لكن الأمطار ملأت كل برك الماء والآن تنمو الأعشاب والشجيرات. وفي طريقنا رأى محمد رجلين في البعيد وشعر بالقلق، من المحتمل أنهما لم يكونا سوى راعيين من السياد (Saiyad)(السادة) وعلى كل حال لم أقلق بشأنهما. معي من الرجال ما يكفي كي يتعرفوا علينا أو نتعرف على كل هذه القبائل. جبل سايس بركان كبير وكامل. وكان له خندق عميق حول الجانبين الغربي والجنوبي. ينتهي عند الجهة الجنوبية الشرقية ببحيرة ممتلئة بالماء الآن. التقطت بعض الصور بينما كان الرجال ينصبون المخيم ثم صعدت مع دليلي من غياث إلى شفا البركان لأخذ سطوح الارتكاز. «آه يا حمد»، قلت ونحن نواجه المنحدر الحجري. «من كان يستطيع أن يسكن في هذا المكان الغريب؟» «بالله» قال، «نتعلم منك، لكن في الواقع أيتها السيدة ليس هناك من يرشدنا إلى الحقيقة سوى الله». كان المنظر رائعاً من القمة ـ صحراء، وصحراء وصحراء، امتدادات واسعة من التراب الأصفر وبرك الماء الكبيرة اللامعة، وأميال وأميال من الحجارة. بحثنا في كل العالم عن خيام عربية لكننا لم نرَ أياً منها في أي مكان. نفضت نازلة التلة وكان لدي وقت كي أرسم مخططاً للأنقاض قبل المغيب. يبقى بعض التصوير وأخذ الزوايا لصباح الغد. لم أتمتع

منذ وقت طويل كما تمتعت بعمل بعد ظهر هذا اليوم. الرضا يسود مخيمي وكل شيء يسير سيراً حسناً.

---

(163)

22 كانون الأول 1913

أخرتنا اليوم حادثة مثيرة ومنافية للعقل. كنا قد سرنا هذا ساعتين عندما رأينا جمالاً ودخاناً ينبعثُ من خيام. اعتقدنا أنهم عرب من الجبال(وبالواقع كانوا كذلك)، من جبل الدروز، ومعهم قطعان. أخبرتك سابقاً أننا حاولنا في الضمير أن نعثر على واحد من عرب جبل الدروز ليكون مرافقاً لنا ولم نفلح ـ وعانينا من ذلك. والآن جاء خيال يعدو بحصانه على السهل يطلق النار وهو قادم في الهواء فقط. دار حولنا وصرخ أننا أعداء. وأننا يجب الا نقترب ومعنا سلاح، وبعدئذٍ بينما كان يصوب بندقيته إليّ أو إلى أحد منا، حاول محمد وعليّ أن يهدئاه لكن عبثاً. طلب من علي بندقيته وسترة الفرو فرماهما له وفي هذا الوقت كان حوالي عشرة رجال أو أكثر جاءوا على أحصنتهم مسرعين، البعض يطلق النار وكلهم يصرخون، وكانوا نصف عراة ـ وكان واحد منهم دون أي لباس ـ وكانت تتدلى خصل مضفورة من شعر أسود على وجوههم. كانوا يقفزون حولنا ويصرخون بنا كالمجانين. أمسك واحد منهم بجمل محمد وسحب السيف المتدلي من خلف سرجه وبدأ يرقص به حولنا، يضرب الهواء ويضرب ناقتي على عنقها أو

يجعلها تركع. وبعد ذلك تقدموا كي يجردوا رجالي من مسدساتهم وأحزمة خرطوشهم وعباءاتهم. نهضت ناقتي ولما لم يكن هناك أي شيء نفعله سوى الجلوس بهدوء ومراقبة الأحداث، كان ذلك ما فعلت. بدت الأمور سوداء نوعاً ما، لكن الأمور بدأت تتحسن عندما تعرف المهاجمون على راعي قطيعي - وهو زنجي - وبعد دقيقة أو اثنتين جاء بعض الشيوخ وتعرفوا على عليّ ومحمد وحيونا على نحو ودي. أعادوا لنا أمتعتنا وركبنا معاً في هدوء وأمان. لكن لتجنب تكرار مثل هذه الأحداث، أو ما هو أسوأ منه، كان علينا أن نأخذ معنا رجلاً من خيامهم، ولفعل ذلك اضطررنا إلى التخييم بجانبهم حتى نستطيع العثور على مرافق مناسب منهم. شرب الشيوخ القهوة معي واستمتعوا بأحاديث طويلة معنا جميعاً وكانوا طيبين بما يكفي لقبول إكراميتي، إشارة إلى شكرنا لإنقاذنا من أيدي الرعاة. وأعطونا رسالة شاملة لكل عرب الجبال. إن شاء الله! لكنني شعرت بكثير من نفاذ الصبر بسبب التأخير.

---

(164)

23 كانون الأول 1913

أمطرت بغزارة حتى الساعة الثامنة من هذا الصباح وتحولت الصحراء إلى عجينة. لكنها تجف بسرعة، وبحلول الساعة 10 انطلقنا، بسبب نفاذ صبري. لكن كل شيء يسير على ما يرام، لم

يعد المطر يهطل بالرغم من أن الطقس كان بارداً ورمادياً. معنا لحراستنا من عرب الجبال أكبر رجل يمكنك أن ترغبي رؤيته، يربض نهاراً فوق جمل وليلاً فوق نار المخيم. نادراً ما يتحدث، ولا يمكنني إلا بالنادر أن أصدق أن أي شخص يَحترمُ مجموعة يتقدمها شخص قليل الحيوية ورث الثياب مثل هذا الضامن. نحن مخيمون في مكان غريب بائس تحت تلة بركانية كئيبة. لسفر الشتاء اختباراته. انطلقنا قبل الفجر بساعة في صقيع قارس. وما أن أشرقت الشمس حتى غلف الكونَ ضبابٌ كثيف واستمر حتى العاشرة والنصف. كنت أعتقد أن الطقس بارد جداً بحيث لا أستطيع الركوب لذلك سرت على قدمي مدة أربع ساعات، وكان الضباب يتجمد على ثيابي بشكل جليد أبيض سميك. كنا قد خرجنا من التلال السوداء قبل شروق الشمس ومشينا ومشينا..... فوق سهل منبسط بالكامل، وكانت جدران الضباب البيضاء تحيط بنا. لم يكن الحال غير بهيج - ولست أعرف السبب؟ لا يتحول المرء إلى أي شيء سوى حيوان في هذه الظروف، يرضى أن يبقى دافئاً بالتمارين وأن يستمر دون تعب ويأكل عندما يشعر بالجوع. لكنني سررت عندما طلعت الشمس واستطعنا أن نرى طريقنا من جديد. حملت معي سطوح الارتكاز إلى مخيمنا بحيث لا تعاني خريطتي من أي نقص. إن هذا العمل في رسم الخرائط - عدا عن أنه إزعاج - هو تسلية كبيرة وتهدئة في ساعات الركوب والسير الطويلة. بزغ النور علينا عندما دخلنا وادياً واسعاً قليل العمق سنسير فوقه حتى نصل إلى غايتنا - برج برقا (The fort of Burqa) الذي سمعنا عنه لكننا لم نره.

(165)

برقة 14 كانون الأول 1913

شاهدنا حصن البرج الرئيس عند الساعة العاشرة من هذا الصباح، ووصلناه عند الساعة الواحدة وكنت منفعلة انفعالاً لا حدود له. ثبت أن برقة ممتعة حقاً. هناك كتابة كوفية جيدة فككتُ رموزها ـ يعود تاريخها إلى العام 81 هجرية، ولما كانت كتابات القرن الأول الهجري نادرة جداً، فهي مهمة على نحو استثنائي.

---

(166)

25 كانون الأول 1913

كيف قضيتِ عيد الميلاد؟ كنت أفكر فيك وبكل هدايا الميلاد تفتحونها في الغرفة المعيشة وتلعبين مع الأطفال. لكنكم لم تكونوا تتناولون الفطور خارج البيت في درجة حرارة تبلغ 28°، وهذا ما كنت أفعله عند الساعة السابعة صباحاً. كان الطقس بارداً بحيث لم أستطع أن آخذ نسخاً للكتابات حتى وقت متأخر من الصباح، لأنه كان من غير الممكن إبقاء الماء سائلاً. عملت بجد طيلة النهار، ورسمت مخططات، والتقطت صوراً، وأخذت خط العرض. وفي وقت متأخر من بعد الظهر اكتشفت أن الصخور الضخمة كانت مغطاة بكتابات صفائية (Safaitic) ونسختها حتى خيم الليل. إنها من فترة قبل الإسلام ـ كانت تلك كتابات بدائية لقبائل

من البدو كانت تسكن تلك الصحارى كتبوا أسماءهم على الحجارة بنوع من الخط الخاص بهذه المنطقة. لذلك بإمكانك أن تتصوري تاريخ برقة: القاعدة الأمامية التي كانت القبائل الصفائية تخيم حولها؛ الحامية الإسلامية من القرن السابع؛ وبعد ذلك سيد محترم مر في تلك الأنحاء في القرن الثامن للهجرة وكتب اسمه والتاريخ على الأسوار، ثم بدو دفنوا موتاهم في ساحة البرج (وهي مملوءة بالقبور) وخربشوا علامات قبائلهم على الحجارة. وأخيراً نحن لكي نقرأ الحكاية الهزيلة. حسناً لقد كان يومي مفيداً. لم يتوفر لدي الوقت للتفكير فيما إذا كان يوماً بهيجاً. باركم الله جميعاً.

---

(167)

26 كانون الاول 1913

أود أن أذكر أن درجة الحرارة كانت 4 مئوية تحت الصفر عندما تناولت فطوري هذا الصباح. والعجيب أن المرء لا يهتم بذلك إلا قليلاً. أمشي ساعة أو اثنتين كل صباح لكي أتخلص من التجمد بعد عمليتي النهوض وحزم الأمتعة المؤلمتين قبل الفجر. كنا نعمل اليوم الشيء نفسه الذي حلمت بفعله. كنا نتبع طريقاً قديمة غير مفروشة بالحصى، لكن عليها جميعاً علامات من كتابات صفوية.

الحمد لله! الليلة الجو أكثر دفئاً 4 درجات مئوية عما كان

عليه في الليلة الماضية. وبسبب الشمس والصقيع فقدت كل معرفتي ـ وكما يمكنك أن تتخيلي ـ أشعر كأنني آلهة الصحة الخالدة. لكنني لا أومن أن تلك الآلهة تنام نصف النوم الصحي الذي أنامه، ولا تأكل بقدر ما آكل.

---

(168)

27 كانون الاول 1913

نسخت كتابات مدة ساعتين أخريين هذا الصباح، ثم فككنا المخيمات وانطلقنا. لكن الشيطان أمسك بالرجل العجوز جداً الذي هو رفيقي فانطلق وحده أو ذهب لينام في مكان ما أو لا أعرف ما حدث. لكن بعد نصف ساعة من البحث اكتشفنا أنه لم يكن معنا، وبعد أن أمضينا ساعة في البحث عنه، ظهر من ناحية مختلفة أخرى، شتمناه جميعاً ـ يا للمسكين ـ لأنه أضاع وقتنا وجهدنا. كانت مسيرتنا اليوم رهيبة في قبضة ريح قوية جداً وفوق حجارة غير متناهية ليس فيها أي ممر ظاهر. لترسل لنا السماء أرضاً أفضل غداً!

---

(169)

28 كانون الاول 1913

لم يستجب لنا الله صلاتنا الأخيرة. تابعنا على الحجارة

طيلة اليوم وتابعنا مسافة بعيدة بلا ماء. عند الساعة 4 بعد الظهر وصلنا إلى خبرة جافة تقريباً وبعد بعض الوقت رأينا فجأة دخان خيام عربية بعيدة، فخيمنا بسرعة، آملين ألا يلاحظونا. وفي الليل راقبنا نيرانهم البعيدة تظهر وتختفي. ولا شك أنهم راقبوا نيراننا، لأننا ما أن سرنا أكثر من ساعتين على طريقنا اليوم حتى سمعنا أصواتاً تعني أن جيراننا كانوا يتحركون. تركنا رفيقنا أبا علي ـ رفيقي العجوز جداً ـ على قمة حافة حجرية ليتعامل معهم، ونزلنا نحن إلى أرض منخفضة وتوقفنا. وحالاً صعد أحد الخيالة الحافة وحيّانا بطلقة بندقية كالعادة، لكن أبا علي قابله ووجد أنه من عشيرته. سارت الأمور سيراً حسناً. وفي الوقت ذاته أشعلنا ناراً وجلسنا حولها ومعنا القادم الجديد وقدمنا له طعاماً وتبغاً وتبادلنا معه المعلومات عن تحركات القبائل. أخبرنا أننا يجب أن نقابل قبيلة السردية (Serdiyyeh) وهم ينقلون مخيمهم وبعد نصف ساعة قابلناهم ودخلنا في الشكليات المعتادة. تصادف أن ذلك الشخص هو الشيخ الأكبر ـ غالب ـ الذي قابلنا قومه وانضم إلينا وألح على أن نخيم معه في تلك الليلة. لم يكن هناك بد لأننا سنأخذ معنا رفيقاً من عنده لضمن سلامتنا من قبيلته في الطريق. لذلك أمضيت فترة بعد الظهر جلست معه وجلست مع النساء شربنا القهوة، وداويت رجلاً مصاباً في قدمه إصابة سيئة ـ كان العلاج الوحيد هو مرهم البوريك، الذي قد لا يفيد ولا يضر، لكنني لو قلت إنه ليس باستطاعتي فعل شيء ما كانوا ليصدقوني. والآن سأتناول العشاء مع غالب ـ الذي ذبح لنا خروفاً. مقابل ذلك سأهديه عباءة. القمر الجديد يغيب الآن في سماء صافية رائعة، والنيران كلها متقدة في

الخيام العربية. المكان جميل وبدائي، لكنني أفضل المخيم المنعزل.

---

(170)

31 كانون الاول 1913

البارحة سافرنا على الحجارة طيلة النهار. وعند الظهر وصلنا إلى موقع روماني أمامي، برج صغير على قمة تلة. أرسلت جمالي وأبقيت رجلين معي لنخطط المكان ونلتقط الصور له. وصلنا المخيم في وقت متأخر.... ولأننا كنا دون جمال الأمتعة، فقد أسرعنا بجمالنا حيثما سمحت الأرض. كان مخيماً جميلاً بجانب بعض الينابيع ـ يا للفرح بوجود الماء النظيف. انتقلنا هذا الصباح إلى القصر الأزرق (Qasr Azraq) الذي يقع بين أشجار النخيل، ويحيط به عدد كبير من الينابيع. كنت قد ذهبت مع رجل، تركته مع الجمال عندما دخلت القلعة وحدي. يقطنها عرب، لكن في الغرفة الأمامية وجدت درزياً حيّاني بحرارة وقدم لي القهوة. وبعد ذلك بدأت أرسم مخطط القلعة، وعندها أحاط بي فوراً العرب وكلهم يصرخون بأعلى صوتهم أنني إذا كتبت سطراً واحداً فسيحرقون كتابي. أخذتهم جميعاً إلى وكيلي، عليّ، كان ساعي البريد منذ 3 سنوات (كانوا قد أغلقوا حجر بوابة القلعة عليّ كي يحتفظوا بي سجينة ريثما يساومونني). جلسنا تحت شجرات النخيل ودخنت وتركت علي يشرح لهم. وكانت النتيجة

أنهم أعلنوا أنهم في خدمتي على نحو كامل. عملت في هذا المكان طيلة اليوم وسأمضي يوماً آخر فيه غداً. لا أعرف حقاً إن كان الأمر يستحق هذا الإزعاج، لكنني أكره أن نترك الأشياء في الأماكن البعيدة دون إنهاء. أظن أنني وجدت كتابة جديدة إغريقية. عليَّ أن آخذ نسخة منها غداً وأرى ما يمكن أن نفعل بها. وهكذا ينتهي العام.

---

(171)

2 كانون الثاني 1914

كانوا جميعاً خارجين على القانون ومشردين في قصر الأزرق وكما لاحظ عليّ بينما كنا نتابع سفرنا هذا الصباح «كان العالم سيكون أكثر راحة لو أنهم جميعاً موتى». كنت دافئة اليوم للمرة الأولى بالفعل. تناولت عشائي بعد الغروب وكانت خيمتي مفتوحة بالكامل. لكن يبدو أنها لن تمطر هنا، ومسألة الماء قد تجلب المصاعب. نستطيع أن نحمل ـ ونحن نحمل اليوم ـ ماءً لأربع ليال إذا كنا مقتّرين باستعماله... ـ لا حمامات وقليل من الاغتسال على ما أظن. بعد العشاء أجلس ساعة أو حوالي ذلك عند نار مخيم الرجال ويخبروني حكايات عن غزوات ورحلات الصحراء. تنيرنا النار بينما نحن جالسون في حلقة يسرد الواحد بعد الآخر حكايته. راعي قطيع الجمال، الزنجي ـ إذا لم يكن نائماً في زاوية (لأنه يضطلع بالحراسة الأولى في الليل)، ينظر من

خلف أكتافنا نحن معشره (بني جلدته) بوجه مبتسم بإشراق بينما تستمر تفاصيل المغامرات في أن تصبح أكثر إخافة وترويعاً. وعندما أنهض لأذهب ينهض الجميع ويودعونني داعين لي بالبركات. غالباً ما أنظر في الحلقة وأتذكر الشبه الشديد بيني وبين الصورة التي رسمها هربرت لي.

---

(172)

5 كانون الثاني 1914

عملت بجهد كبير طيلة 3 أيام في خرانه (Kharaneh)، وهي قصر آخر من قصور الملذات الأموية. لم أرَ في طريقي منذ الأخيضير شيئاً أكثر متعة. ليس هو من اكتشافي، لكنني اشتغلت فيه أكثر مما عمل فيه أي شخص آخر. في الواقع لم تتم دراسته كما تمت الآن. إضافة إلى التفاصيل المعمارية الرائعة حصلت على كميات كبيرة من الرموز المعمارية التي آمل أن يتمكن موريس من دراستها من نسخي وصوري. واحدة على الأقل منها مؤرخة في 92 هجرية. والصعوبة الوحيدة هنا كانت الماء كما نخشى. طاف رجالي في أنحاء البلاد، فكان كل ما قدمه الجوار 4 زقاق من الماء. لكن مع ما جلبنا معنا كان لدينا ما يكفي لثلاث ليال هنا، وهذا كل ما أردت وكان لا يزال لدينا مؤونة الغد خشية ألا نجد شيئاً أثناء سفرنا. لقد أحبط نقص الماء ـ لسوء الحظ ـ خطتي الرائعة في الإرسال إلى مأدبا بينما كنت أعمل هنا. ولأننا

لا نعرف أين سنجد الكمية التالية فلم نستطع أن نعين أي مواعيد لقاء. وهذا يعني ـ أيضاً ـ عدم الاغتسال وبدأت أشعر أنني لن أكون نظيفة بعد الآن. لكن خرانه كانت تستحق كل ذلك ـ التأخر والوسخ وكل شيء. أعمل في هذه الأيام من السادسة والنصف صباحاً وحتى الساعة الخامسة مساءً، منها نصف ساعة استراحة لتناول الغداء عند الساعة الحادية عشر. منعني الظلام عند الصباح والمساء من العمل ساعات أطول. لكن العمل كان عظيماً. وها نحن الآن نسير نحو الشرق ـ باتجاه مأدبا ـ وسنخيم حيث يكتب الله لنا.

---

(173)

6 كانون الثاني 1914

ذهبت رسالتي وأريد أخذ رسائلي.

---

(174)

إلى والدها: 9 كانون الثاني 1914

كما قلت من قبل، أُف، لقد وقعت. كنت حمقاء أنني اقتربت جداً من سكة الحديد، لكنني كالنعامة ورأسها في الرمل، إذ لم أسمع بكل الأقاويل التي تقال عني. إضافة إلى ذلك كنت أريد فتوح ورسائلي. جاء فتوح أمس صباحاً، وصل للتو من دمشق، وكان لا يزال يبدو شاحباً ونحيفاً (لا عجب في ذلك)،

لكن كانت معه شهادة صحية نظيفة من الدكتور ماكينون. وهل تعلم أنني أؤمن حقاً أن حضوره يعوض عن كل حالات سوء الحظ ـ التي أصابتنا؟ لقد افتقدته كثيراً، رفيق سفري المخلص. لم يحصل أحد في العالم على صداقة وخدمة مخلصة كالتي يقدمها لي. كان في السماء السابعة لكونه عاد إلينا. وفي الوقت نفسه لم يكن أحد من الرجال الأربعة الذين أرسلتهم إلى مأدبا وزيزا لشراء المؤن قد عاد. في منتصف فترة الصباح وصل واحد من سائقي الجمال ومعه القش المقطّع، وبعد أن تناولت غدائي وكذلك الجمال (تناولت على الغداء ما لذ وطاب من الأشياء التي جلبها فتوح من دمشق)، ركبت وذهبت إلى مشيتا (Mshetta) التي تبعد ساعة فقط عن مخيمي. وعندما عدنا نظر إلينا علي ـ سائق الجمل ـ وقال: «هل هؤلاء الخيالة أو راكبو الجمال ذاهبون إلى خيامنا؟». نظرت، فكانوا خيالة، وأكثر من ذلك، كانوا جنوداً وعندما وصلنا كانوا يجلسون حول نار مخيمنا. جاء المزيد منهم ـ حوالي العشرة ـ وأخيراً جاء شاويش وقح غاضب ـ عفريت المكتب ـ وقال إنهم كانوا يبحثون عني منذ غادرت دمشق. هذه كانت الأمور. تظاهرنا بالهدوء والرزانة، وعندما انفجر الشاويش غضباً سكتنا. أرسلت فوراً برقيات إلى بيروت ودمشق إلى القنصلين، لكن كان عليَّ أن أرسل معها رجلاً إلى مأدبا، والشاويش اعترضها، ووضع الرجل ـ أحد سائقي جمالي ـ في قلعة زيزا ـ سجيناً بصورة خاصة. وأرسل فتوح إلى هناك أيضاً بتهمة إهانة خيالية (لم يكن فتوح قد قال شيئاً) وبعدها بحث في أمتعتنا واستولى على أسلحتنا ووضع رجالاً حول خيمتي. كل هذه

الأمور التي لم يكن له أي حق في فعلها، قابلتها بهدوء بارد، وهي التي سيعطيني الله لأجلها مكافأة. وفي المساء بدأ يشعر بقليل من الخوف وأرسل يسألني إن كنت أريد إعادة فتوح. لكنني رفضت أن يرسل فتوح من جديد لأن الليل كان بارداً جداً، وكذلك كان تصرفي، وشعرت بينما كنت أرتجف في فراشي، ببعض الرضا بالتفكير كم كان حراس الآثار هؤلاء غير المرحب بهم يرتجفون في الخارج. كانت درجة الحرارة خمس درجات مئوية تحت الصفر كان هناك ضباب متجمد. واليوم انتظرنا قائممقام السلط ليأتي أو يرسل إذناً لنا في الذهاب إلى مكان آخر. كان أقرب سلطة إلينا أتمنى حضوره. تركنا الشاويش في الصباح الباكر تحت حماية 6 أو 7 جنود وعاد في المساء دمثاً جداً. أمضينا النهار بسرور، نتحدث مع الجنود ونصلح عمود خيمة مكسوراً، ونتحدث فترات طويلة في خيمة فتوح، وكان أحد أفراد الحملة أو آخر يتدخل ليشارك في الحديث. وأنا الآن مشغولة في ابتكار خطط جديدة، لأنني لم أهزم بعد. لكنني أتخيل هذا الطريق مسدودة ومن المحتمل أن أضطر إلى الذهاب إلى دمشق وأبدأ من جديد عن طريق بالمايرا. فندق «بغداد ريزيدنسي» هو أفضل عنوان لي. والأمر مضحك لا يهمني كثيراً. إنها قصة مغامرة مضحكة لكنني لا أظن أن المغامرة انتهت، بل يجب أن تتخذ مساراً آخر. قمت ببعض الأعمال الممتعة في الأسابيع الثلاثة الماضية ـ تماماً ما كنت أنوي فعله، لكنني لم استمتع بهذا الشيء كثيراً حتى الآن وانطباعي هو أنه ليست هذه هي الطريق الصحيحة. أظن أنني أستطيع أن أفعل شيئاً أفضل من هذا. على

كل حال سأحاول. الله يقدّر! يعلّق فتوح بابتهاج: «أمضيت الليلة الأولى من الرحلة في محطة سكة الحديد، والثانية في السجن، والآن أين؟..».

---

(175)

السبت 10 كانون الثاني 1914

كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن. ولأن القائممقام لم يصل هذا الصباح، فقد نزلت إلى عمان ووجدته في طريقه إليّ، وهو رجل ساحر مثقف، مسيحي، راغب ومستعد لأن يسمح لي بالذهاب إلى أي مكان أريد من أي طريق أرغب. والآمر هنا، شركسي، وهو مثله. لكن تبقى هناك مسألة الضمير. لا أريد أن أقحم القائممقام في مشكلتي باستغلال طيبه، لذلك أبرقت إلى دمشق من أجل السماح لي بزيارة آثار زيزا، وإذا حصلت على ذلك (لا أرى سبباً لعدم إعطائه لي) سأكون قد أرحت صديقي من كل مسؤولية وسأكون حرة ـ حسب الظروف ـ أن أذهب في طريقي. من المؤكد القول أنني سأكون مسرورة عندما يأتي الإذن. من الغريب أننا ركبنا عبر طرقات كثيرة التلال وأراض محروثة اليوم بعد ثلاثة أسابيع من الصحراء. لكن يا لهذا الطقس! رياح ومطر مع بَرَد، تهب كالشيطان الليلة. أرادوني أن أنام في السراي، لكنني فضلت خيمتي. هذا المكان رائع. إذا كان الطقس جميلاً غداً فإنني أرغب في رؤيته ثانية. لقد كنت هنا مع عائلة

روزن منذ 14 عاماً. لكنها كانت طريقاً صعبة على الجمال المحمّلة، صعوداً ونزولاً... فالجمل ليس مركبة جبال في هذا الجزء من العالم. الجميع يعرفونني في هذه الأنحاء. لقد قابلت هنا ابن أخ لنمرود ـ ذلك الرجل الذي ساعدني في جبل الدروز في عام 1905. راجعي كتاب (الصحراء والأراضي المزروعة «The Desert And The Sown»). وكلهم ناس ظرفاء. بالإجمال هذه المغامرة السيئة حسنة نوعاً ما حتى الآن. ماذا سيقولون في دمشق؟ حسناً، سأعرف غداً. لا أستطيع أن أسلك غير هذه السبيل.

---

(176)

11 كانون الثاني 1914

لم يصل الرد من دمشق بعد، لكن القائممقام يظن أنهم لا يستطيعون رفض الاذن. لذلك أنتظر مرتاحة البال. أُرسلُ رسائل إلى دمشق الليلة وهذه الرسالة ستذهب معها. أمضيت اليوم أتلقى وأرد الزيارات من وجهاء عمان وذلك ممتع. وكذلك تمشيت طويلاً مع القائممقام عند العصر وتحادثنا حديثاً ممتعاً. رجل ظريف، لكن هؤلاء المسيحيين يعطونني شعوراً باليأس. يسيرون وعلى أعينهم عصابة ولا ينظرون إلى الحقائق وجهاً لوجه. ليس من السهل عليهم العمل مع المسلمين، لكن إن كنت تفهمين قصدي: إنهم يلتقون معهم في منتصف الطريق: حسناً ليس الأمر

كذلك. مع ذلك فهو رجل مقتدر وذكي. أحببت أن أكون معه وكذلك مع الشركسي الهام الطيب. أتوقع أن أكون هنا غداً أيضاً. لم تظهر الشمس اليوم، لكن الليلة الطقس جميل من جديد، وعندي الكثير من أعمال التصوير غداً.

---

(177)

إلى الكاتبة: عمان، 14 كانون الثاني 1914

انتهت مشاكلي. حصلت اليوم على إذن من الوالي كي أذهب أينما شئت. وهذا الإذن يأتي في الوقت المناسب لأنني وضعت كل خططي وكنت سأغادر غداً ليلاً. ما كان بإمكانهم أن يلتقطوني. وفرت على نفسي مشكلة، هذا المصدر الأخير، وهذا ممتع !. كان للتأخير ميزة إعطاء فتوح عدة أيام كي يستعيد صحته. يبدو بحال أفضل وهو بحال أفضل مما كان عندما التحق بي، لكن المرء لا يشفى من الحمى التيفوئيديه في غمضة عين. الآن أظن أنه سيتمكن من السفر دون تعب. غداً سأخيم في زيزا لكي آخذ رفيقين ـ واحد من قبيلة بني صخر وواحد من قبيلة الشرارات وسيعملان كضامنين عندما نلتقي بقبائلهم كما يمكن أن يحدث بعد عدة أيام. تعرفت على جميع السكان البارزين في عمان. واليوم حضرت عرساً شركسياً وشربت الشاي مع الجالية البروتستانتية التي يبلغ تعدادها 15 عائلة.

---

(178)

إلى والدها: 19 كانون الثاني 1914

عليَّ أن أبدأ سرداً لبعض الأحداث، لا يعرف أحد سوى الله متى ستنتهي. غادرنا عمان يوم 15، أعطيت السلطات في عمان تأكيداً أن السلطات العثمانية ليست مسئولة عني. وليس لهذا أهمية كبرى، لأنني حيثما ذهبت من دون جنود فسيكون للحكومة الحق في نفض يدها مني، وليس بإمكاني أخذ جنودٍ معي في الصحراء. ركبت ذلك اليوم إلى مزرعة بعض المسيحيين في التلة فوق لينا حيث قدموا لي ضيافة تليق بالملوك، وجاء نمرود ـ الرجل الذي ساعدني في عام 1909 ـ وقضي الليل هناك. سررت برؤيته.

عليَّ أن أخبرك أنني كنت في مشكلة مع البغّالين. فالرجال الثلاثة الذين أتيت بهم من دمشق لم يكونوا متأكدين إن كانوا سيستمرون معي ـ أظن أنهم كانوا يخشون مخاطر الطريق. وبينما كنا في عمان عثرنا على رجل آخر من دمشق ـ وهو ابن أخ مرشدي القديم محمد ـ واسمه سعيد. كان أمراً جيداً أن فعلنا ذلك، لأنه في يوم 16، عندما أغادر، رمى رجال عقيل الثلاثة (Agail) العصي التي يقودون بها الجمال وأعلنوا أنهم لن يأتوا. عندي سعيد وراعي جمالي الزنجي، ـ فلاح ـ وهو ولد ممتاز. أدخلَ مضيفيَّ في خدمتي فلاحاً من مزرعتهم (اسمه مصطفى)، ووظفت رجلاً ثالثاً من العقيل كان قد لحقنا من عمان على أمل أن يحصل على مكان. اسمه علي، يجب عدم الخلط بينه وبين

«علي ماوسر»، الدليل الذي كان ساعياً للبريد في عام 1911، ولا يزال معي ولن يتركني أبداً على ما أظن. بالإضافة إلى هذا، معي سليم وهو ابن أخ آخر لمحمد، الذي استخدمته في البدء في مكان فتوح، وهو خادم جيد وظريف جداً ومثقف، وإنني أحبه كثيراً. وأخيراً معي فتوح وهو العنصر الأهم بين أفراد المجموعة. وهكذا انطلقنا. زودني مضيفيّ برفيقين، رجل من الشرارات لم أكن قد رأيته كثيراً، ورجل من بني صخر ـ صيّاح ـ وهو مرافق بهيج. ركبا معي حتى ما بعد لينا ثم في طريق سكة حديد مكة ـ هما ونمرود وأنا، وحضَّر لنا بعض العبيد والخدام غداء طيباً. افترقت عنهم وأنا أشعر بالعرفان. تمسكوا بيدي وعانقوا محمد وفتوح وأطلقونا بكثير من صيحات الدعاء العميقة. عبرت سكة حديد مكة وأدرت وجهي نحو الجزيرة العربية. في اليوم التالي ركبنا عبر أرجاء متموجة من بني صخر ومررنا بين الحين والآخر بجانب قطعان من جمال وأغنام. شيخ صغير من بني صخور انضم إلينا، ومعه عبده، وأمضيا الليل معنا ضيفين: الكلمة المقدسة. كان شاباً ساحراً، ابن عم الشيخ الكبير حثميل (Hathmel)، وكان راغباً جداً أن يتابع معنا هو وعبده.

في اليوم التالي تابعنا طريقنا فوق التلال والوديان العريضة قليلة العمق، المغطاة بالصوان بالكامل، ووصلنا بعد الظهر إلى قصر طوبه (Tubah). الذي كان مخططاً على نحو كاف من قبل موزيل (Musil) لكن تصويره كان غير جيد وأمضيت بعد الظهر أعمل فيه على نحو مفيد. خيمنا بمحاذاة الآثار وعثرنا على بركة ماء صاف جيدة في قاع الوادي الرملي الذي تقع فيه، لكن الرجال

كانوا قلقين نوعاً ما تلك الليلة، لأن الصحراء إلى شرقنا كانت «فارغة» وذلك يعني أنه لم يكن هناك أحد من بني صخر وراءنا وكانوا يخشون من فرقة الغزو من العنزة المتجهة نحو قطعان الجمال التي كانت ترعى والتي مررنا بجانبها في الصباح. لكن هذه الفكرة لم تبقني مستيقظة ـ ليس هناك من داع لإخبارك ذلك ـ لأنني لن أنام إلا قليلاً جداً في الأسابيع القليلة التالية إن كنت سأنزعج من مثل هذه الأشياء ـ وعندما استيقظت وجدت أنه لم يكن هناك أي مجموعة غزو وكانت أمتعتنا سالمة آمنة.

كانت درجة الحرارة 2 مئوية عندما انطلقنا قبل الفجر، 21 درجة مئوية عندما خيمنا عند الساعة الثانية. من الصعب جداً تكييف هندامك مع تغيرات درجة الحرارة على هذا النحو. ركبنا عبر أراض صوانية طيلة النهار، ليس هناك أي ماء معنا من طوبة. نحن نخيم في قاع واد جاف غير بعيد عن نقطة العلام في كل هذه البلاد: التلال الثلاث المدببة التي كانت تدعى الثليثوات (Thlaithuwat): والنعمة الكبرى هي أنه هناك نقطة لسطوح ارتكاز بوصلتي أكثر مما أستطيع القول! وطالما أنه ليس هنا ماء فليس هناك خوف كبير من الغزاة، لكننا نقوم بالحراسة من أجل اللصوص العرضيين، الذين إن وجدونا منتبهين، انقلبوا إلى ضيوف، وإن وجدونا نائمين فإنهم سيسرقون جمالنا. «بني آدم»، كما يقول محمد. أستمع طيلة اليوم إلى قصص الغزو والحملات. لكن هذه الصحراء الفسيحة بلاد جميلة، وإنني استمتع هنا كثيراً.

---

(179)

21 كانون الثاني 1914

ركبنا طيلة اليوم عبر أراضي يتبعثر عليها الصوان يوم 20. وحوالي منتصف النهار ظهر خلفنا اثنان من راكبي الجمال وثبت أنهما جدعان (Jadan) الشيخ الكبير من بني عقيل وواحد من رجاله. رأيانا عندما مررنا تحت الثليثوات، وظنا أننا فرقة غزو، فلحقانا ليريا إلى أين كنا ذاهبين.

«ظننا أنكم أعداء». قال: «لا والله الحمد نحن أصدقاء». قلت: فتابع معنا مدة ساعة يرافقنا ثم عاد ليطمئن شعبه. وعند الساعة الثانية وصلنا إلى آخر القلاع. «بايير» (Bair) التي لم تكن قد رسمت مخططاتها ولم تُلتقط لها أي صور. المخطط من النموذج القديم جداً. ويعود تاريخ المكان إلى القرن الثامن. هي مشهورة جداً بسبب أسوارها وفي الصيف والخريف ـ إذا لم يكن بنو صخر يخيمون هنا، تمر كل حملات الغزو من هذا الطريق. لذلك سمعت عن حملات غزو حدثت هنا أكثر مما سمعت من قبل، وسأخبرك واحدة منها: كنت مع محمد وصياح (رفيقي) جالسين فوق أكبر بئر يبلغ عمقها حوالي عشرين متراً. ولاحظ محمد أنه عندما تعرف على بايير للمرة الأولى، ردمت هذه البئر. كانت مجموعة من قبيلة العيسى قد هجمت على بني صخر هنا وقتلت أحد الخيالة. فقتل بنو صخر من بني عيسى اثنين من راكبي الجمال. كان بنو عيسى عطاشاً، وقبل أن يغادر الصخور رموا

الرجلين الميتين مع جمليهما في البئر ودحرجوا عدة صخور كبيرة فوق الجميع، حتى لا يستطيع بنو عيسى الشرب، ويلحقوا بهم.

«هذا حرام. هذا ممنوع». قلت:

«لا، كانت فكرتهم جيدة». قال صياح:

«العرب شياطين». قال محمد:

«شياطين»، قال صياح:

«هم الشيطان بعينه». قلت. ويمثل هذا الحكم نظر صياح إليّ وضحك. بإمكانك أن تعتبر هذا مثالاً عن محادثاتنا المعتادة.

---

(180)

الجمعة، 23 كانون ثاني 1914

سرنا يومين عبر أراضي هادئة، وبالفعل معظم هذا اليوم لم يكن هناك شيء نأخذ عليه سطح الارتكاز سوى أذني ناقتي لكنهما ليستا خطأ جيداً. نسير مدة ساعة أو اثنتين عبر مرتفعات يتبعثر فوقها الصوان المتلألئ باللون الأسود، ثم نزلنا وصعدنا على ضفاف واد عميق نوعاً ما، جاف طبعاً ـ ثم وصلنا إلى مرتفع من جديد. جميع الوديان هنا تتجه شرقاً وغرباً تقريباً. في الليلة الماضية هطل بعض المطر، وفي أول واد عميق وصلنا إليه كانت هناك بعض برك الماء الراكد، شرب منها الجمال بنهم. نحن نحمل ماءً وطالما أننا لم نكن متأكدين أننا سنصل إلى بَرك غداً

فإننا نستعمله باقتصاد. لا حمامات وقليل من الاغتسال من أي نوع. تحول الطقس إلى بارد بعد المطر، دون صقيع، والرياح كانت قارسة لكن منعشة إلى حد ما. البارحة عثرنا على حجر عليه كتابة صفائية إلى الجنوب بمسافة لم أكن أعتقد سنجد فيها مثل هذه الأشياء. إنها بلاد منعزلة ـ قاحلة إلى حد عدم التصديق. لكن في الوديان نجد بعض الجنَبات ترعى منها الجمال.

---

(181)

الأحد، 25 كانون ثاني 1914

غيرنا مسارنا قليلاً البارحة، ولما رأينا كم كان العالم هنا جافاً وقاحلاً، قررنا أن بني صخر لا بد انتقلوا شرقاً فالمكان لم يكن جذاباً لهم. وصلنا الحافة الشرقية للنجد الصواني. ثم نزلنا في واد رملي ورأينا في الرمل كثيراً من آثار الأقدام لجمال ـ ذاهبة وآتية ـ لكن أي نوع من العرب مروا من هذه الطريق لسنا ندري. خيمنا في منخفض لا يمكن فيه رؤية نيراننا ثم مضينا: علي وصياح وأنا نستطلع كي نجد عرباً هنا. صعدنا بحذر شديد رابية مرتفعة ومن كتفها استكشفت الأماكن بمنظاري. لم يكن هناك أحد في مدى رؤيتنا. اليوم انطلقنا في فجر صقيعي ونزلنا الوادي. مشيت مع عليّ مدة ساعة وانتظرنا جمالنا في منخفض رملي، وكانت آثار الأقدام حولنا من جميع الأنحاء. قال علي: «هذه آثار أقدام جديدة». انتهى الوادي إلى سهل عريض مكشوف من حوله

تلال فيها صدوع جميلة سوداء وحمراء بلون الصدأ، لأن الصخر البركاني قد تحلل بفعل العوامل الجوية. تسلل الضوء حولها بينما كنا نسير عبر السهل. كانت تقف كجماعات تراقبنا وكانت وسط هذا الفراغ والصمت تبدو رهيبة على نحو استثنائي. وفجأة صرخ صياح «هاهو دخان». كان عمود طويل من دخان يتمايل مرتفعاً قبالة تلة سوداء. عليَّ أن أخبرك أننا من دون ماء ونشعر بالعطش ـ لم تشرب الجمال منذ أربعة أيام. لم نكن متأكدين أبداً متى سنجد الماء، ولم نعرف أبداً أياً من العرب قد أوقدوا النار التي شاهدناها ودخانها، لكن إجماع آرائنا أنهم كانوا غزاة. كانت تلك اللحظات الممتعة في سفر الصحراء. قررنا أنه من الأفضل أن نصعد ونرى من كان هناك. فإن كانوا أعداء، فمن المؤكد أنهم سيروننا ويتبعوننا على أي حال، وإن كانوا أصدقاء فإنهم سيعلموننا أخباراً عن القبائل ويعطوننا الماء. لكن السؤال الأخير وجدنا جوابه بأنفسنا ـ وجدنا البركة التي كنا نبحث عنها. سقينا الجمال وتركنا الرجال ليملئوا زقاق الماء، ومحمد وعلي وصياح وأنا ذهبنا لنستكشف الدخان المجهول ـ عبرنا جسراً صغيراً وعلى الجانب البعيد رأينا قطعاناً من الغنم ورعاة الحويطات (Howaitat) الذين جاءوا وحيونا وأعطونا أخبار شيوخهم. كان كل شيء بأمان، ونزلنا إلى التلال وخيمنا. غداً آمل أن نكون ضيوفاً على الحويطات. لا يمكن أن تكون المخيمات الكبيرة بعيدة جداً، لأن الماء الوحيد في هذه المنطقة هو البركة التي عثرنا عليها هذا الصباح، باستثناء بئر واحدة في التلال إلى الشرق. الحويطات

ناس كثيرو العدد. يغزون كل الأراضي حتى الفرات ولهم سمعة شريرة : الشجاعة المتهورة.

---

(182)

الثلاثاء، 27 كانون ثاني 1914

البارحة ـ سافرنا بين التلال. في طريق عودتنا التقينا براكب جمل أخبرنا أن حادثة مؤسفة جداً قد وقعت الليلة الماضية. هاجم رجل كان يخيم مع الصخور مخيماً صغيراً من الحويطات ـ كانت له ضغينة قديمة ضد الساكنين فيه واختطف بعض الأغنام. لاحقه الحويطات وقتلوه. وثأراً له أطلق أخوه النار على ثلاثة من الملاحقين وهرب إلى خيام الصخور. هذه الأخبار جعلت رفيقي من الصخور ـ صياح ـ يشعر بالقلق بالنسبة للاستقبال الذي قد يلقاه في خيام الحويطات وحاولت تهدئته (نجحت إلى حد ما) بطمأنته أنني لن أتخلى عنه تحت أي ظرف من الظروف ـ لكن كل شيء سار سيراً حسناً. وصلنا خيام حرب ـ واحد من شيوخ الحويطات ـ واستقبلونا بكل لطف بمن فينا صياح. ذبح لنا حرب خروفاً وتناولنا عشاءنا جميعاً معه في تلك الليلة. وفي نهاية العشاء جاء ضيف آخر ـ وهو محمد أبو تايه ـ وأبو تايه هم الشيوخ الكبار من الحويطات. هو شخص عظيم، طويل وكبير، له مظهر بارز ـ لا يشبه البدو النحيلين الجالسين حول نار حرب.

كانت سمعة الحويطات بالشجاعة الشريرة ظاهرة على وجهه ـ لا أود مقابلته وهو في حالة غضب.

واليوم أرسلنا الجمال إلى الماء ـ كل هذه البلاد تشرب من البركة التي ملأنا منها زقاقنا يوم الأحد، ولا نجرؤ المتابعة من دون مؤنة ماء كافية. لذلك كان يومي طويلاً في المخيم ـ جلست أتحدث إلى حرب وقومه، نشرب القهوة ونتحدث من جديد ونلتقط الصور ـ يحبون أن تُلتقَط لهم الصور. أخذت خط العرض عند الظهر وهو الأفضل. يعود محمد المروي وابن أخيه سعيد ـ سائق جمالي ـ من هنا وسأرسل هذه الرسالة على أمل أن تصل في النهاية إلى البريد وتطمئنكم أنني سالمة وأموري تسير على نحو جيد. سنأخذ معنا واحداً من الحويطات من هنا، ولأن الحويطات كلهم على طريقي فإنني أعتبر أننا في حماية كافية. قررت أن أذهب إلى تيماء (Taima) ـ سترينها على الخريطة، كي أحصل على أخبار نجد من هناك. وهي مدينة لبني رشيد. أظن أنها على بعد ثماني مسافات من هنا. أتوقع أنني سأتمكن من الكتابة إليكم من هناك. اشتريت جلد نعامة وبيضتين. تعيش النعامات قريباً من هنا، لكنني لم أرَ واحدة حية بعد.

---

(183)

إلى والدها: 4 شباط 1914

لقد تأخرت طويلاً في البدء برسالتي التالية لك فعلاً. ومنذ

أن أرسلت رسالتي الأخيرة مع صياح (أتساءل هل تصلكم؟) غيرنا خططنا عدة مرات ولا أزال أتردد أن أعلن أننا بالفعل على الطريق إلى نجد بالرغم من أنني أظن أننا كذلك. على كل حال نحن في الجزيرة العربية في الصحراء نفسها ولاشك حول ذلك. لكن لا بد أن تسمع. عندما وصل الأمر إلى حد مغادرة خيام حرب، وجدت أن مسألة من سيكون رفيقنا لم تحسم بعد. على العكس كل العرب وجميع رجالي اجتمعوا حول نار المخيم وكان وجه أي واحد منهم أطول من وجه الآخر. بدا أن الصحراء أمامنا ـ الطريق إلى تيماء ـ كانت خلاء (فارغة) يعني: ليس هناك قبائل مخيمة فيها. وستكون ـ كما أكد لي الجميع ـ موبوءة بالغزو الذين يسقطون علينا ليلاً ويسلبونا متاعنا إن لم يكن أسوأ من ذلك. ليست عندي أي وسيلة للحكم إذا كان هذا صحيحاً أم لا، لكنني أجد أنني إن ألححت على أخذ طريق عكس تلك التي حذرني الجميع من أخذها، فسيكون ذلك أمراً مضاداً لقواعد اللعبة، وإضافة إلى ذلك، هناك الصعوبة الأكيدة أننا لم نستطع أن نعثر على رفيق يقودنا عبرها. لذلك بعد مشاورات مطولة تقرر أنه يجب أن نتجه شرقاً ونذهب إلى جوف (Jof) ونرمي بأنفسنا تحت رحمة الرولة (Ruwalla) ونشق طريقنا جنوباً ـ إن أمكن ـ وإذا لم يكن ممكناً فإلى الشرق إلى بغداد. انطلقنا صباح اليوم التالي مع أخي حرب ـ عواد ـ كرفيق، إلى الجوف ووادي سرحان تحقيقاً لهذه الخطة. لم أضف أي شيء إلى رسالتي، بالرغم من أن صياح لم يكن قد غادر، لأن المستقبل كان يبدو مريباً، وكان من الأحسن أنني لم أفعل. كنت سأقول أننا ذاهبون إلى جوف ولن يكون ذلك

أكثر صحة مما لو قلنا إن طريقنا كانت إلى تيماء. بعد أن تابعنا فوق التلال الأخيرة ـ كانت تلالاً لذيذة مملوءة بقطعان من الجمال ـ وصلنا حالاً إلى خيمة عودة الكبيرة وهو شيخ الحويطات الكبير. لم يكن عودة موجوداً ـ كما علمنا ـ كان يغزو شمر. لكننا توقفنا لشرب القهوة والتقاط الصور ثم ركبنا شرقاً. لكن تصادف أن رجلاً كان بين شاربي القهوة كان قد أعطى عواداً معلومات أن بعض الرولة قد يلقاه بالمصادفة سيقطع عنقه لدى رؤيته، فكان من الواضح أنه لن يقدر على إرشادنا إلى وادي سرحان، وبذلك أصبحتُ بلا رفيق من جديد. أرسلته إلى خيام محمد ـ أخي عودة ـ (كان حاضراً في خيام حرب في الليلة الأولى التي كنا فيها هناك، ـ شخصية هائلة) يفتش عن «شراري» ذا شهرة ليس له عداوة دم مع الرولة، ودخلنا المخيم وانتظرنا النتائج. عاد بعد ساعة يرافقه محمد نفسه مع بعض الآخرين الذين بقوا كي يتناولوا العشاء معنا وياموا. أحضر محمد خروفاً وجلد نعامة ظريفاً جداً، وأخبرني أيضاً أثناء شرب القهوة عن آثار في جبل طبيق (Jebel Tubaiq) سيأخذني لأراها إذا عدت معه إلى مخيمه. لكنني كنت غير راغبة أبداً أن أعود، لكن الآثار آثار، وعدا عن ذلك مهنتي أن أقرر أي نوع من الآثار هي. لذلك ركبنا عائدين في اليوم التالي مع محمد، وكان رجالي ميالين إلى التذمر، وأنا ميالة جداً كي أشك في محاكمتي الخاصة. عثرنا على دليلنا الشراري ـ مسرود ـ وكان من الممكن أن نتابع لو أردنا. لكن على العموم كنت على حق. في المقام الأول كانت الآثار تستحق أن آراها. فيها رموز كوفية وكلها كاملة، ولكي أصل إليها ركبت خمس

ساعات عبر جبل طبيق، رأيت وصورت «المكان العالي» قبل الإسلام (كما ظننته) وأخذت فكرة أفضل بكثير عن هذه التلال الممتعة جداً. فهي مليئة بالجَمال المتوحش والأساطير، تستحق دراسة طيلة شهر كامل، وهذا ما قد أخصصه لها يوماً ما، ولدينا مثل هؤلاء الأصدقاء من الحويطات. فالصداقة بيني وبين محمد قد أصبحت وثيقة. إنه شخص طيب وإنني أحبه وأثق به. في الأيام الثلاثة التي قضيتها معه ـ واحد منها بالفعل كان طويلاً جداً قضيناه ركوباً فوق التلال ثم العودة منها ـ رأيته يوزع العدالة وحسن الضيافة على قبيلته ووجدت أن الاثنتين كانتا جيدتين. في إحدى الأمسيات جلسنا في خيمته الكبيرة ـ فهو شخص هام كما تعلم ـ وأصغيت إلى حكاياته وأغانيه عن الصحراء، ومآثر عودة وهو أحد أكثر غزاة هذه الأيام شهرة، والمغامرات العاطفية لأمراء نجد. جلس محمد بجانبي على البسط التي مدت على الرمل النظيف الناعم، بشكله الكبير متلفعاً بعباءة من جلد الغنم، وأحياناً ينفخ بنارجيلته ويصغي إلى الحديث ويشترك فيه أحياناً، وكانت عيناه السوداء تبرقان عند السؤال والجواب. راقبت هذا كله ووجدت الكثير مما يستوجب النظر إليه. ثم بعد حلول الظلام بوقت طويل ستعود النوق (إناث الإبل) إلى مخيمها مع صغارها وتربض على الرمل خارج الخيمة المكشوفة. نهض محمد ولف نفسه بعباءاته وخرج في الليل ومعه قصعة خشبية كبيرة، وأعادها إليَّ مملوءة حتى حافتها بحليب الناقة وهو شراب لذيذ جداً. أظن أنك عندما تشرب حليب الناقة فوق نار مخيم أبو تايه... ستكون قد تعمدت بمعمودية الصحراء وليس هناك من خلاص آخر لك.

رأيت بعضاً من النساء أيضاً ـ نساء محمد وأخته. نعم تلك كانت أياماً ممتعة. وقد أطلتها دون قصد مني لهذا السبب. في اليوم الذي زرت فيه الآثار كنا قد أرسلنا جمالنا كي تشرب عند خبره (Khabra) وتجلب لنا الماء. هل تعلم ما هي خبره؟ إنها بركة ماء مطر. وقد تبين أنها بعيدة جداً بحيث أن الجمال استغرقت 18 ساعة في طريقها ذهاباً وإياباً لكن واحدة منها لم تعد أبداً. ربضت ناقة ورفضت النهوض فتركوها على بعد 6 ساعات. هذا ما تفعله الجمال. إذا كانت متعبة ولا تود التحرك، فليس هناك شيء في هذا العالم أو العالم التالي سيجعلها تتحرك. كان من الواضح أننا لن نتخلى عن ناقة. أرسلنا رجلاً في منتصف الليل كي يطعمها ويعيدها وانتظرت يوماً آخر. وفي أثناء ذلك اليوم غيرنا كل خططنا مرة أخرى. جاء محمد المروي كي يراني وقال إنه ظن إذا ذهبنا إلى جوف فستكون هناك صعوبة كبيرة في المتابعة إلى نجد، طالما أن الرولة هم أعداء شمر، إضافة إلى أن مسرود، رفيقنا من قبيلة شرارات، كان جاهزاً كي يأخذنا ناحية الجنوب ـ إلى تيماء، إذا رغبنا أكثر إلى الناحية الجنوبية الشرقية ومن ثم إلى نجد مباشرةً. كان يبدو أن الغزو وطلقات البنادق في الليل قد تلاشت. سألت مسرود باهتمام شديد وقررت أن البرنامج قابل للتطبيق وأخبرت رجالي أنه كلما قللنا من الحديث عنه كان أفضل. بالاسم كنا لا نزال ذاهبين إلى جوف ـ عليك أن تكون سرياً للغاية في هذه الأصقاع. عاد الرسول الذي ذهب إلى الناقة تلك الليلة وأخبرنا أنه أقنع الناقة أن تتحرك مدة 3 ساعات ـ لم نمانع في عدم مجيئها لأن طريقنا الجديدة ستكون من ناحيتها. كان الخطر الحقيقي

أمامنا ـ كما استنتجت ـ هو نقص طعام الجمال. إذا لم نجد مراعي في الصحراء إلى الجنوب (لم يبق معنا إلا عليق يكفي لستة أيام. «عليق يعني علف») فإننا قد نعاني من جوع الجمال، ولا أدري ممَّ سنعاني نحن. لكن الأخبار ـ إذا كان من الممكن تصديقها ـ عن البلاد التي أمامنا كانت جيدة، وأن المخاطر الأخرى في الوصول إلى نجد بعيدة فقررت المجازفة. أعطانا محمد نصف حمل من القمح ـ وكان ذلك تتويجاً لأعمال حسن الضيافة منه ـ وأنا أعطيته منظار «زايس» مقابل لطفه. انطلقنا وركبنا مدة 3 ساعات إلى الطرف الجنوبي من جبل طبيق، ونزلنا بجانب ممر ضيق صخري إلى السهل تحت، حيث خيمنا. هنا وجدنا ناقتنا وقد تعافت تقريباً وجاهزة للانطلاق في اليوم التالي. كانت «الأشجار» تخضرُ وكان هناك كثير من المراعي الجيدة. وأمامنا كانت تستلقي الأصقاع التي نحن فيها الآن، أراضي من حجر رملي أحمر وما نتج عنه من رمل. كانت أمطار الشتاء المبكرة جيدة، والشجيرات الشائكة المتفرقة التي تنمو في الرمل، قد ظهرت براعمها الخضراء، وكانت جميع برك المطر ممتلئة ولم يكن الغزاة موجودين (حتى الآن). لم يكن معنا رفيقنا الشراري فحسب، بل كان أيضاً هناك رجل سيقودنا في قلب بلاد شمر ـ ليس رجلاً، بل عائلة. التقينا بهم في مخيمنا الأخير في طبيق، عند أسفل التلال، عائلة من شمر كانوا يريدون العودة إلى نجد. لم يكونوا ليجرؤوا على أخذ هذه الطريق المباشرة من دوننا، ولم نكن أيضاً أقل امتناناً منهم، لأننا لو قابلنا غزواً من شمر فإننا نكون في مأمن منهم. وها نحن الآن نخيم في رمل أحمر ذهبي

بين تلال متكسرة من حجر رملي أحمر، وكل جنبات الصحراء خضراء رمادية وكان بعضها قد تحول إلى أزهار شاحبة لا لون لها. رائحتها حلوة وفواحة. قال علي «مثل العنبر»، وهو يشم الهواء عندما دخلنا إلى المخيم بعد هذا الظهر. والجمال قد أكلت ما يكفيها. نسير ببطء. لأنها تأكل وهي تسير، وأنا لا أمانع في ذلك. لا أتعب أبداً من النظر إلى المناظر الحمراء الذهبية وأتعجب من عزلتها المذهلة. أحب الاستمرار في السير فيها، وأتساءل أحياناً إن كان هناك أي مكان أنا تواقة إلى الوصول إليه.

---

(184)

7 شباط 1914

رحلة ثلاثة أيام لم تذهب بنا بعيداً. هناك الكثير من الشجيرات الخضراء والأعشاب المزهرة التي تتوقف الجمال عندها وترعى بينما نحن على الطريق، والبارحة دخلنا المخيم في وقت مبكر لنعطيها الطعام الجيد. بعد يوم أو اثنين في هذه البلاد سيكون الفرق عجيباً لها. الآن ليس هناك سوى الرمال والحجارة الرملية، والتلال القاحلة الطويلة والروابي من الحجارة الرملية المكسرة. لكن الأمطار المبكرة كانت جيدة واليوم تتحول فيها الصحراء القاحلة إلى حديقة غناء. رؤيتها تبهج العين. والمطر الذي هطل علينا يوم مغادرتنا جبل طبيق كان غزيراً فوق كل المناطق. نجد المنخفضات من الحجر الرملي ملأى بماء المطر

العذب الصافي ونادراً ما نجد صعوبة في ملء زقاق الماء لأن الكمية تكون كافية في كل ليلة. يا له من حسن حظ كبير. بالأمس مررنا بمغامرة رائعة. إضافة إلى عائلة شمر لدينا خيمتان من الشرارات معنا، والناس فيهما فقراء جداً (يبدو أنهم يتقون شر الجوع الكامل الذي يهيمن عليهم من الهبات الصغيرة من الطحين منا)، لا يملكون شيئاً سوى بضع عنزات والجمال التي تحملهم. ذهبت هذه العنزات مع القطيع قبل الفجر، وقبل شروق الشمس بقليل تبع جماعة شمر جماعة الشرارات على جمالهم وذهبت أنا وراءهم سيراً على قدمي لأنني كنت أريد أن آخذ سطوح الارتكاز من الحافة التي أمامنا. كنا نخيم في واد قليل العمق. كان مسرود معي. كنا قد مشينا حوالي 100 ياردة عندما استدار كل من كانوا أمامنا وعادوا مسرعين. «إنهم خائفون»، قال مسرود. «لقد رأوا عدواً». جاء غادي الشمري الرئيس راكباً. «ما الأمر؟» سألته. «قوم ـ عدو» أجاب. «كم عددهم؟» قلت. «عشرون راكب جمل»، أجاب وصرخ لرجالي «إلى الوادي، إلى الوادي». جعلنا كل الجمال تجثم وراء الأكوام الرملية وشجيرات الطرفاء، سحبنا أسلحتنا وانتظرنا. لم يحدث شيء. حالاً زحف غادي عائداً إلى الحافة يستطلع، ولم يحدث شيء أيضاً. بعدئذٍ ذهبت ومسرود وفتوح عبر الحافة ومسحت المكان كله بمنظاري. لم يكن هناك أي شيء. لوّحنا للآخرين كي يأتوا وبينما كنا ننزل في أمان تام، استنتجنا أن الـ 20 من راكبي الجمال لا يمكن أن يكونوا أي شيء سوى صاحب الماعز الذي وجدناه حالياً يرعى القطيع أمامنا. في الليل أعلنت أنني أنوي أن آخذ رفيقاً من بني معاز (قبيلة الماعز)،

لكن هذه الدعابة غير البارعة جداً جعلت المجموعة الكاملة المجتمعة حول نار القهوة تغرق في الضحك.

---

(185)

10 شباط 1914

في يوم 8 شباط وقعنا في أيدي لصوص ـ أسوأ من بني معاز. بعد أن نصبنا خيامنا بساعة أو اثنتين قابلنا بعض الحويطات، أخبرونا أن صياح ـ شيخ وادي سليمان كان يخيم على بعد عدة ساعات نحو الشرق. ولما كان من المؤكد أنه سيسمع بوجودنا رأينا أن من الحكمة أن نخيم معه تلك الليلة ونأخذ رفيقاً منه ـ وإلا ـ أنت تعلم ـ كان من الممكن أن يرسل خلفنا في الليل من يسلبنا. استقبلنا بلطف لكن ذلك كان تظاهراً. وحالاً جاء المتوحش الأعور إلى مخيمنا تفحص كل أملاكنا وطلب كل شيء منا بالدور. في البدء فكرنا أن نتخلص منه بالتخلي عن مسدس، لكن الأمر انتهى بأنني اضطررت أن أعطيه منظاري الزايس بانزعاج كبير. أَقسَمَ أنه لم يزر أي مسيحي هذه البلاد من قبل، وأنه يجب ألا يمر أحد ـ لذلك لن يرسل أي رفيق معنا وهكذا يكون حراً في سلبنا؛ وأخيراً اقترح على سعيد وفتوح أن يساعداه على قتلنا واقتسام الغنيمة. لم يحصل على أي تشجيع منهما ولا أعرف أن أياً من هذه التهديدات كانت أكثر من كلام. تمسكت بمنظاري قدر استطاعتي، ولكن عندما نصحني سعيد ـ

الذي يعرف العرب ـ أن استسلم في النهاية لئلا تتخذ الأمور منحى أكثر سوءاً، رضخت. حصلنا على رفيق، ابن عم صياح ـ وبذلك شعرنا بالطمأنينة من « ملعوني الوالدين». أخذنا أيضاً رجلين من قبيلة الفقراوهي قبيلة أخرى يحتمل أن نلتقي بها. يقال إن حظهم أكثر سوءاً في ذريتهم من قبيلة ولد سليمان. كان أحد شيوخهم يخيم مع صياح وأرسل أخاه وشخصاً آخر معنا. هذا الأخ ـ حميد ـ رحالة مرح جداً ولم أجد أي عيب في ابن عم صياح: زيّاد. لكن صياحاً هذا مشهور بالخبث. كان نموذجياً فيه أنه سلب من مرافقينا من شمر 3 مجيديات قبل أن يسمح لهم بالذهاب معنا. لم يبقَ لديهم أي مال ولم يستطيعوا الدفع لكن محمد المروي كان ضامناً لهم وكان عليَّ أن أدفع عنهم الفدية طبعاً! يا للمساكين! البارحة كانت رحلة يوم كئيبة جداً على تلال رملية متموجة مليئة بالحصى، لم نرَ شيئاً، لكن فجأة مشينا فوق آثار أقدام نعامة. أما هذا اليوم فقد كان مختلفاً نوعاً ما. تلال أخذنا عليها سطوح الارتكاز وخيمنا في بطن واد مملوء بالنباتات الخضراء من أجل جمالنا. شفينا من الكآبة التي رمانا فيها تصرف صياح ونحن نأمل ألا نرى المزيد من الشيوخ بعد الآن.

---

(186)

12 شباط 1914

ركبنا البارحة عبر قفار قاحلة كثيرة الحصى ونزلنا عن تلال

رملية إلى منطقة منخفضة وجدنا فيها برك ماء. سقينا جمالنا وملأنا زقاقنا ثم أدرنا وجوهنا إلى الناحية الجنوبية الشرقية إلى النفود التي تقع على مسافة ساعة واحدة فقط منا. والنفود امتداد كبير من التلال الرملية، يستغرق عبورها 7 أو 8 أيام. تمر طريقنا عبر الزاوية الجنوبية الشرقية وأنا مسرورة برؤية هذه القفار الرملية المشهورة. إنها منتجع جميع القبائل أثناء الشتاء والربيع حيث تبرز كمية وفيرة من النباتات من الرمل الدافئ، لكن ليس هناك ماء دائم إلا عند الحدود البعيدة، أما في الصيف فهي فرن مشتعل. هذه هي اللحظة المناسبة لها. جميع النباتات تبدأ بالخضرة وتطلق أزهارها، وجمالنا تأكل طيلة اليوم أثناء سيرها. لكن السفر بطيء جداً ـ صعوداً ونزولاً على سلسلة تلال لا تنتهي من رمل ناعم أصفر شاحب. وبين الحين والآخر تظهر وديان عميقة جوّفتها الرياح، نضطر إلى القيام بدورة طويلة حولها لنتجنبها، ومن وقت لآخر يتكوم الرمل ليصبح حافة عالية أو رأساً (رأس) كما يسمى باللغة العربية ـ ينتصب عالياً جداً بلون أصفر فوق الضفاف لأن جوانبها الشديدة الانحدار خالية من النباتات. وفي حوالي منتصف اليوم وصلنا إلى رأس مرتفع جداً صعدتُ قمته ورأيت التلال قرب تيماء إلى الغرب وأول جبال نجد إلى الجنوب الشرقي ـ جبل أرنان. عندما نزلت حياني فتوح بالأخبار أن واحدة من النوق ربضت وأنهم لم يستطيعوا جعلها تتحرك. عدنا: فلاح ومحمد وأنا ومعنا بعض الطعام لها، اعتقدنا أنها كانت متعبة من المشي في الرمل العميق وأننا بالطعام والملاطفة نستطيع أن نجعلها تنهض، لكن عندما وصلنا إليها وجدناها تتدحرج في الرمل تلفظ

أنفاسها الأخيرة. قال محمد: «لقد انتهت. هل سنضحي بها؟» فقلت «من الأفضل فعل ذلك». فاستل سكينه وقال: «بسم الله. الله الكلي القدرة» وقطع رقبتها. قال إنها كانت مصابة بمرض يأتي على نحو مفاجئ جداً. ولحسن الحظ كانت واحدة من حيواناتنا الثلاث الضعيفة. كنت سأضطر لبيعها في حائل وأنها ما كانت لتجلب لنا أكثر من جنيه أو اثنين. ليست خسارة كبيرة، لكنني أشعر أني مرتبطة بكل جِمالي وأحزن لموتها لأسباب وجدانية.

---

(187)

15 شباط 1914

نتابع مسيرتنا الهادئة عبر رمال النفود، لأنه، طبقاً لجميع المعلومات التي تأتينا من العرب الذي نقابلهم في مخيماتهم، كانت تلك الطريق الأكثر أماناً، وأنا القريبة الآن جداً من حائل، ليست لدي أي رغبة أخرى سوى الوصول إليها دون أن يوقفني أحد. نحن الآن ندور داخل حدها الجنوبي ومن قمة كل تلة رملية نستطيع أن نرى جبال نجد. البارحة خيمنا باكراً كي نطفئ ظمأ حيواناتنا. لم نرَ أي ماء منذ كنا في خبره. فالبئر ـ حيزان ـ كانت على بعد ساعة ونصف من مخيمنا، ركبت ونزلت مع الجمال لأرى عملية السقي. الآبار نادرة جداً في النفود. فهي غير موجودة إلا على حدودها وهي عميقة جداً. وبئر حيزان هذا يقع في بطن

منخفض كبير قرب ضفاف النفود الرملية الشديدة الانحدار. كان طول الحبل معنا 48 خطوة. كنا نحمل معنا اثنين من العصي القوية ودولاباً صغيراً عملنا منه بكرة للحبل. كانت هناك خيمة عرب قربنا والشيخ ـ سليم ـ كان هناك ومعه بعض من قومه يسقون جمالهم. استخدموا بكرة مثلنا. كانت المشاهدة ممتعة والتقطت كثيراً من الصور. كان هناك من اعترض في البداية على التصوير وسألوا ما هذا. سألت الشمري الذي كان معنا والأخوين اللذين جاءا معنا من جبل طبيق إن كان يجب أن أتوقف عن التصوير، لكن قالا لا، إن الأمر لا يهم. لذا تابعت ولم يعترض أحد. عندما نفكر بالمنظر الغريب الذي أمثلهُ لهؤلاء الناس الذين لم يروا أبداً أوربياً يكون جديراً بالملاحظة أنهم يتركونني دون إزعاج. عادات الصحراء حميدة.

---

(188)

19 شباط 1914

إن السير في النفود يشبه السير في المتاهة. فأنت تلف وتدور حول حُفر رملية عميقة يبلغ طولها أحياناً نصف ميل، حوافها شديدة الانحدار بحيث لا يمكنك النزول. وهي في معظمها بشكل نعال الفرس وتتجول حولها حتى تأتي إلى الطرف ثم تنزل في أراضي منخفضة، لتعود إلى الصعود من جديد. كيف نتحمل ذلك لست أدري. أعتقد أننا كطيران الغراب بالكاد قطعنا

مسافة ميل واحد في الساعة. لكن هناك شيء مفرح في ذلك أيضاً: أماكن التخييم الآمنة بين الرمال، وفرة المراعي، والرتابة التي تشعرك بالنعاس والخدر. لكن تحملنا ذلك. خرجنا منها اليوم. منذ يومين أوقفنا المطر الغزير الذي بدأ عندما فككنا خيامنا. ذهبنا مدة ساعتين وتبلل الرجال كلهم أثناءهما ولم أسلم أنا أيضاً من البلل. تبقى الغيوم فوق قمم التلال الرملية مثل الضباب الكثيف. وأخيراً أعلن رفيقي أنه لم يستطع رؤية أي نقاط علام ولم يكن متأكداً من اتجاهنا. لا يسير العرب في المطر وكان عليَّ أن أرضخ. نصبنا المخيم وجففنا أنفسنا أمام نار حطب مضطرمة. هطل المطر ونزل البَرَد ودوى الرعد معظم النهار والليل وابتهج جميع الناس. قال رفيقي: «سيضحي الشيوخ اليوم بجمل». سيرعى الجمال في النفود مدة ثلاثة أشهر بعد هذا المطر. وصلنا الليلة الماضية إلى أول مخيم شمر ـ وشمر هم عرب نجد ـ وأخذنا رفيقاً أكبر الشيوخ سناً وأخشنهم في العالم. والبدو غير معروفين بالمحاكمة القوية والثابتة لكن هذا واحد من أكثر الناس الذين عرفتهم غباء وبلادة. وفي هذا الصباح وصلنا صخور جبل مسمى (Misma) الرملية القاحلة، الذي يحد النفود هنا، ومررنا عبرها إلى نجد. وعندما وصلنا إلى قمة آخر حافة رملية كانت الأراضي التي انفتحت أمامنا أكثر قحطاً وفراغاً من أي مكان آخر شاهدته. صخور مسلمى السوداء تنحدر بشدة نحو الجانب الشرقي إلى برار مؤلفة من قمم خشنة موجودة في قاع من رمل قاس، ويمتد خلفها إلى مسافات شاسعة السهل الخالي، غير المحروث وغير المأهول والذي تتبعثر عليه أعمدة حجرية ونجود

منعزلة من حجر رملي. خيمنا مرة أخرى على حواشي النفود لأجل المرعى وغداً سنذهب في السهل.

---

(189)

الأحد، 22 شباط 1914

تثبت تلك البلاد القاحلة أنها مكان بهيج جداً. كانت المنخفضات الحجرية الرملية ممتلئة بالماء وكان هناك الكثير من المراعي. مشينا مسرورين فوق أرض قاسية طيلة النهار وخيمنا في وسط التلال على أرضية رملية بين جروف عالية. كان بعض الأفراد من شمر بجوارنا على بعد حوالي ميل. بالأمس كانت رحلتنا كئيبة على سهل غير متناه وصعدنا ضفافاً رملية إلى مخيم آخر صغير، لكنه هذه المرة عالٍ في قلب السلسلة الصغيرة. في مكان ما من الضفاف الرملية مررنا على الحدود بين الحجارة الرملية والغرانيت. كنت قد لاحظت أن الأشكال الغريبة لتلال من الحجارة الرملية لم تكن ظاهرة لنا، وعندما جئنا إلى مخيمنا في جبل ركام(Rakkam)، كانت الصخور من الغرانيت. تسلقت إلى أعلى إحدى القمم ووجدنا أزهاراً تنمو في الشقوق وأعشاباً صغيرة بيضاء أرجوانية وأشواكاً ونباتات برواق (asphodel) قزمة (وهو نبات من فصيلة الزنبقية) ـ لم تكن تلك وفيرة جداً، لكنها تمتع الناظرين في هذه الأراضي القاحلة. واليوم مررنا في قرية صغيرة حولها بعض الأراضي المزروعة قمحاً. وكانت هذه البيوت الأولى

التي شاهدناها منذ غادرنا زيزا. كان هناك 6 أو 7 منها. وبعد ذلك باغتتنا النفود من جديد، وقد امتدت إلى الجنوب مسافة طويلة هنا، ومشينا في طرقات منخفضة من الرمل تحت شمس حارة جداً. نخيم اليوم في تلال رملية.

---

(190)

24 شباط 1914

نحن نخيم الآن على مرأى من حائل وكان من الممكن أن أدخلها اليوم. لكن ظننت من الأفضل أن أعلن عن مجيئي، لذلك أرسلت محمداً وعلياً وخيمنا في السهل على بعد ساعتين من المدينة. انتهينا من النفود على نحو دائم. وكنا كل نهار أمس واليوم في أراض ساحرة ـ ساحرة بالنسبة للجزيرة العربية، ذات صخور غرانيتية كبيرة وسهول صغيرة وشجرات أكاسيا (الصمغ العربي) شائكة تنمو فيها، وكذلك نباتات صحراوية حلوة الرائحة. مررنا بقرية صغيرة أو اثنتين، بيوت طينية في حدائق نخيل وحولها من جميع الجهات جدران طينية. آمل أن يكون أهالي حائل مهذبين. الأمير في الخارج يغزو وترك أحد أعمامه في مكانه.

---

(191)

7 آذار 1914

أجد الآن أن من واجبي أن أقص عليكم حكاية غريبة عن زيارتي لحائل. فككت المخيم عند شروق الشمس من صباح 25 وركبت نحو المدينة. عندما ابتعدنا حوالي الساعة قابلنا علياً على جمله وهو يبتسم. رأوا إبراهيم ـ العم ـ في مكان المسئولية. كان مهذباً جداً وقال إنني على الرحب والسعة. و ها.. ها... كان هناك ثلاثة عبيد من بيته خرجوا لاستقبالي. عندئذ أشار إلى 3 خيالة يتجهون نحونا ودخلوا المدينة من البوابة الجنوبية. وعند عتبة أول بيت كان محمد الرشيد يقف، وهو العم الكبير للولد الحالي. مشيت على ممر منحدر ـ ليس درجاً ـ بل معبراً ـ إلى باحة مكشوفة ومنها إلى غرفة كبيرة ذات سقف محمول على أعمدة وكانت هناك أرائك وسجادات عند جميع الجدران : كانت هذه الغرفة هي الركن : غرفة الاستقبال. هنا جلست وجلس أحد العبيد معي. هؤلاء العبيد ـ يجب أن تعلم ـ على الأغلب شخصيات مهمة، يعاملهم أسيادهم كالأخوة ويعطونهم الثقة الكاملة. وكذلك عندما ينحّي أحدٌ من قبيلة الرشيد الأميرَ الحاكمَ ويأخذ مكانه(وهذا ما يحدث غالباً) فسيكون حريصاً على قتل عبيده أيضاً، لئلا ينتقموا للأمير المقتول. بعد ذلك ذهب الرجال كي يروا مكان الجمال وينصبوا الخيام في الباحات الواسعة تحت. (هناك 5 باحات لمنطقتي، كلها محاطة بجدران من طين وفيها أبراج. هنا في الأيام الخوالي ـ قبل سكة حديد مكة ـ كان

من عادة الحج الفارسي أن يستقر). ظهر على المنظر امرأتان. كانت الأولى أرملة عجوز ـ لؤلؤة ـ وهي المشرفة هنا، كما يقال. والأخرى شركسية، أرسلها السلطان هدية إلى محمد الرشيد واسمها تركية. تحت عباءتها الأرجوانية الداكنة (جميع النساء محجبات إلى حد بعيد هنا)، كانت ترتدي أثواباً قطنية أرجوانية وحمراء متألقة. وكانت ترتدي حبالاً من لؤلؤ براق حول عنقها. وهي تَسوَى ثقلها ذهباً ـ كما علمت. ثرثارة من الطراز الأول، وقضيت ساعة مسلية جداً برفقتها. أرسلوها إلى هنا كي تقضي اليوم ولترحب بي. بعد الغداء قام إبراهيم بزيارتي زيارة رسمية، وكان بعض العبيد يسير أمامه والبعض الآخر يسير وراءه. هو ذكي ومثقف جداً (كما يكون العربي). كان يرتدي حريراً هندياً ويحمل سيفا فَي حاضن مذهّب، ظل يتكلم حتى أعلن أحد العبيد أن أذان العصر قد ارتفع، فنهض وغادر. لكن عندما غادر همس محمد المروي الكبير أنه بسبب عدم وجود الأمير ولأن في المدينة بعض الحديث عن قدومي، وأنني غريبة وكذا وكذا، فإن عليه أن يكون حذراً وإلخ. . . . . بالمختصر عليّ ألا أغادر البيت دون إذن. قضيت معظم فترة بعد الظهر جالسة في بهو النساء أتحدث إلى تركية التي كانت رفيقة ممتازة. كانت جمالي بحاجة ماسة للراحة. ليس بجانب حائل أي مرعى فقررنا أن نرسلها بعيداً إلى النفود مع أحد رجالي واثنين من رجال حائل زودني إبراهيم بهما. بعت 6 جمال، ولأن الأمير كان غائباً في الغزو ومعه كل الجمال المتوفرة، وهي مطلوبة كثيراً في هذه اللحظة، 6جمال كانت الرحلة قد أوهنتها، وأرسلت الجمال الثلاثة عشر الأخرى في

الصباح الباكر. وبعد ذلك جلست هادئة في أسر مشرّف، وكانت الأيام طويلة متعبة. وفي يوم 27 دعاني إبراهيم لزيارته في المساء. كنت قد أعلنت أنني سأرد له الزيارة. بعد الظلام أرسل رجلاً وعبدين وركبت عبر المدينة الصامتة الخالية إلى القصر، قصر قلعة الأمير. دخلت من البوابة وأرشدني مجموعة من العبيد إلى الركن : وهي قاعة الاستقبال الكبيرة المعمّدة، حيث وجدت إبراهيم ومجموعة كبيرة يجلسون على سجادات عند الجدران. وقف الجميع عند دخولي. جلست على الجانب الأيمن من إبراهيم مدة ساعة أو أكثر بينما كان العبيد يخدموننا بالشاي أولاً ثم بالقهوة. وأخيراً أحضروا مباخر وصاروا يلوّحون بها أمام كل منا ثلاث مرات، وهذا يعني أن الاستقبال قد انتهى. فركبت عائدة وأعطيت إكرامية لكل من البوابين عندما غادرت. كنت قد أرسلت هدايا من أثواب حريرية لكل من هؤلاء الناس، إبراهيم والعبيد الأكثر أهمية وللأمير الغائب : منظار زايس ومسدساً له. كنت الآن أعيش من الأموال التي تلقيتها ثمناً لجمالي الستة، وأصبح من الضروري أن أطلب الـ 200 جنيه التي أودعتها مع وكيل الأمير في دمشق. كان الجواب أن كتاب الاعتماد كان قد كتب باسم خازن الأمير الذي كان غائباً معه في الغزو، وأن المال لا يمكن أن يدفع إليّ حتى يعود. كان من المحتمل أن يغيب شهراً آخر ولم أكن أفكر في البقاء في حائل شهراً آخر، حتى ولو كنت حرة في الذهاب والإياب كما أشاء. علاوة على ذلك، أقنعوني أن جدة الأمير ـ فاطمة ـ التي كانت شخصية قوية في بلاطه، كانت مسئولة عن الخزينة، وأن بإمكانها أن تعطي (أو تمنع) كما تشاء. لكنني

لا أستطيع أن أجازف بالبقاء هنا من دون أي مال. لم يبقَ لديّ سوى 40 جنيهاً. أخبرت رجالي أن ذلك المبلغ يجب أن يكفي، وأنني سأستدعي جمالي، آخذ الـ 8 الأفضل منها وأذهب مع فتوح وعلي وفلاح إلى بغداد، بينما بقية الرجال سينتظرون أسبوعاً آخر حتى تستريح الجمال ويعودوا إلى دمشق بطريق المدينة وسكة الحديد. المال الذي معي يجب أن يكفينا جميعاً مع الإكراميات في البيت هنا. على ذلك اتفقنا وبعد يومين آخرين طلبت مقابلة خاصة مع إبراهيم، وذهبت من جديد إلى القصر ليلاً ورأيته وسمعت منه مجدداً أنه لا يمكن الحصول على أي مدفوعات بغياب الأمير. أجبت أنه إذا كانت الأمور كذلك، فيجب أن أغادر فوراً آسفة وطلبت منه رفيقاً. قال إن الرفيق كان جاهزاً وإنه سوف يعطيني أي شيء أريد. عليّ أن أخبرك أنه في ذلك الصباح أعاد لي الهدايا التي أرسلتها له ولأخيه زامل ـ الذي كان غائباً مع الأمير. لا أعلم إن كان السبب أنه وجدها غير كافية أم ماذا؟ أرجعتها معي في تلك الأمسية وقلت إن مشاعري قد جُرحت وطلبت منه قبولها ففعل. أعارني رجلاً في الصباح وركبت وذهبت ومعي واحد من عبيده إلى حديقة خاصة به، وإلى خارج المدينة. شكرته على ذلك وافترقنا ونحن في أفضل العلاقات. في اليوم التالي أرسلت رسولاً إلى جمالي ـ وكانت على بعد يومين ـ وجلست هادئة من جديد أسلّي نفسي على أفضل ما يمكن ـ لكن هذا الأفضل لم يكن جيداً. لم أكن أدري ماذا كانوا يخفون من نوايا نحوي. جلست أسيرة، وجاء إليّ رجالي بإشاعات من المدينة. عليّ ـ على نحو خاص ـ له عمّان هنا وهما شخصان

لهما أهمية خاصة. لم يكلفا نفسيهما عناء المجيء لزيارتي، لكنهما أرسلا لي أخباراً. كان الاعتقاد العام أن الأمر بكامله من تدبير فاطمة ـ لكن لماذا وكيف سينتهي، الله وحده يعلم. إن كانوا لا ينوون السماح لي بالمغادرة، فأنا بين أيديهم. كان الأمر كله يشبه قصة من حكايا ألف ليلة وليلة، لكنني لم أجدها ممتعة على نحو خاص كي تكون واحدة من شخصيات المسرحية (dramatis personae). عادت تركية ثانية وقضت اليوم معي. وفي اليوم التالي ظهر المخصي سعيد ـ وليس هناك من أحد أقوى منه ـ جاء ليخبرني أنني لا أستطيع الذهاب دون إذن من الأمير. أجبت أنه ليس معي المال وأنني يجب أن أذهب وأرغب في ذلك. وأرسلت هذه الرسالة إلى إبراهيم وفاطمة. فأجاب أن الذهاب أو عدم الذهاب ليس في أيدينا. أرسلت رسائل مستعجلة إلى عمّي عليّ، وبعد الظهر جاء واحد من أولاد أخيه لزيارتي، وهذه إشارة مشجعة. في تلك الليلة دعتني النساء إلى القصر. استقبلتني والدة الأمير ـ مودي ـ وكانت تركية هناك لتقوم بعمل مقدمة سفراء. كان الأمر كما لو أننا في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة أكثر من السابق. فالنساء في أرديتهن الهندية المقصّبة وجواهرهن، والعبيد والخصي والغرف المعمدة الكبيرة والأطفال المثقلين بالجواهر: لم يكن بينهم أحد غيري لا ينتمي إلى أسيا الشرق الأوسط. جلسنا على الأرض وشربنا الشاي وأكلنا الفواكه، انظر الليالي العربية في مواطن كثيرة منها. وبعد ذلك مر يوم طويل آخر. جلسنا في الركن الكبير هنا وشربنا الشاي، قدمه أحد عبيدي ـ فأنا أيضاً كان لدي اثنان أو ثلاثة. كان هناك مصباح وحيد ينير المكان

وكانت الريح الليلية تهب عبر شقوق مصاريع النوافذ، التي ليس لها زجاج. أخبرتها عن كل مشاكلي وأنني لا أملك مالاً ولا أستطيع الحصول على شيء وأنني أجلس هنا يوماً بعد يوم لا يسمحون لي بالذهاب. وفي اليوم التالي دعاني ولدان من بيت الشيخ ـ لن أخبركم جميع صلات القربى بينهم بالرغم من أنني سمعت بها جميعها ـ كي أقضي فترة بعد الظهر في الحديقة القريبة. ذهبت إلى هناك وكان الولدان وجميع أطفال الرشيد الذكور ـ كل الذين لم يقتلهم الأمراء المغتصبون المتتابعون ـ وكذلك كثير من العبيد طبعاً والمخصي سعيد. جلسنا على سجادات في سرادق الحديقة كما يمكنك أن ترى في أي رسم مصغر فارسي تريد النظر إليه. ومن جديد عرضت مطالبي التي تلقت الإجابات السابقة نفسها من سعيد. انتهيت بالإعلان أنني أريد المغادرة في اليوم التالي وطلبت رفيقا. وبعد ذلك تجولنا في الحدائق مع مضيفيّ وأخبرني الولدان بعناية أسماء جميع أشجار الفاكهة (التي كنت طبعاً أعرفها) ومشى الأطفال الصغار بهدوء يداً بيد في ثيابهم المقصبة الطويلة. ثم شربنا المزيد من القهوة. وعند صلاة العصر غادرت. بعد الصلاة جاء سعيد وأخبر محمد المروي أنني يجب أن أفهم أنه لا يمكن فعل شيء حتى يأتي الإذن من الأمير. ذهبت إلى خيمة الرجال وأخبرت سعيداً ما يجول بخاطري دون أي صياغة بعبارات شرقية. وبعد أن فعلت ذلك، نهضت فجأة وتركتهم جالسين ـ وهذا ما لا يفعله إلا الشيوخ الكبار كما تعلم. جاءت الجمال عند الغسق وظناً مني أنني لا بد سأبقى هنا فترة طويلة من الزمن، وكنت قد بدأت أخطط إلى أين سأرسلهم

للرعي، جاء بعد الظلام سعيد وشخص آخر ومعهما 200 جنيه في كيس وإذن كامل بالذهاب أينما أريد ومتى أريد. وكان الرفيق جاهزاً. أجبت بعزة نفس كبيرة أنني في غاية الامتنان وأنني لا أنوي المغادرة حتى اليوم التالي لأنني كنت أريد أن أرى القصر والمدينة في ضوء النهار. واليوم أخذوني ليُروني كل شيء، وسمحوا لي بتصوير كل شيء وأن أفعل ما أشاء بالضبط. أعطيت 10 جنيهات «بخشيش» في القصر. وعندما كنت عائدة دعتني تركية إلى بيتها فذهبت. قالت إنها شرحت الوضع كله لفاطمة، وإن التغيير التام حدث بسببها؛ لكن مهما كان الأمر فأنا شاكرة جداً لها. سأذهب إلى بغداد. بعد استفسارات حذرة أشعر على نحو أكيد أن الطريق نحو الجنوب غير ممكنة هذه السنة، فالقبائل مستعدة وهناك حملة محتملة من هنا. لذلك لن يعطوني رفيقاً إلى الجنوب وسأجد صعوبة كبيرة في الذهاب دون إذن منهم. لذلك أكتفي بحائل هذه السنة. بالإضافة إلى ذلك تعلمت القدر الكبير عن الأسفار في هذه البلاد وأعلم أنه لا يمكن السفر في هذه البلاد الجنوبية على الطريقة الفرنجية إن أذهبْ يوماً إلى هناك فيجب ألا أذهب ومعي من الأمتعة أكثر مما أستطيع حمله على ناقتي الخاصة.

---

(192)

الأحد 22 آذار 1914

نحن على مرأى من النجف. خيمت على بعد ساعة عن المدينة لأنني أعرف أنه ليس هناك مكان للتخييم بجوارها ومن المحتمل أن يكون عليّ أن أقيم في سراي الحكومة، وهو أمر متعب. وكذلك أتمنى كثيراً أن أمضي إلى بغداد دون أسئلة ولا برقيات. آه ! لكن الطريق من نجد كئيب وطويل. كنت أريد أن آتي من طريق الحج القديمة التي لها أهمية تاريخية خاصة وهي أيضاً الأقصر، لكن صباح اليوم الذي غادرت فيه حائل جاء عبد برسالة تقول أنني يجب أن أسافر في الطريق الغربية لأن الشرقية غير آمنة. ولما كنت لا أبالي أي الطريقين أسلك، أذعنت. وبعد يومين التقينا رسل الأمير ومعهم حكاية (جلبوها لنا) عن غزوة ناجحة جداً وعن هروب جميع العنزة أمام الأمير وعن أسر (امير) جوف. قالوا إن الأمير كان على بعد أيام قليلة منا. ولكن عندما عبرنا النفود مدة أربعة أيام واقتربنا من المكان الذي قيل إنه فيه كان قد غادر وعبر إلى الطريق الشرقية وقيل إنه انطلق يغزو بعض القبائل الأخرى على ناحية الشرق. لم أكن أنوي العودة من أجله وسيكون ذلك أمراً لا جدوى منه لأنني قد أستغرق أياماً للعثور عليه، لذلك تابعت طريقي بهدوء تام. تابعنا فترة طويلة جداً فوق سهل، حيث لا يرى أي واد أو تلة والقليل من الماء بحيث كنا دائماً في عوز شديد له بحيث لا نستطيع صرفه في الاغتسال. وطالما كنا مع الشمر ـ وكان ذلك في الأيام العشرة الأولى ـ كنا

في أمان تام مع رفيق من حائل. ذهب معنا مدة 8 أيام وأخذنا شمرياً آخر في اليومين التاليين. وبد ذلك بدأت المتعة. كان علينا أن نمر خلال قبائل الشيعة من العراق الذين كانوا منتشرين في كامل الصحراء للمرعى الربيعي وكلهم ملعونو الوالدين. كان أول من التقينا قبيلة بني(البو) حسان وأمضينا ساعة لذيذة جداً لم يبدُ خلالها أنهم سوف يسلبوننا أو سيعاملوننا كضيوف. وأخيراً قرروا الثانية. خيمنا معهم وذبحوا خروفاً من أجلنا وفي اليوم التالي أعطونا رفيقين. في ذلك اليوم ـ لحسن الحظ ـ لم نرَ أحداً وخيمنا في مكان منعزل. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي رأينا خياماً وصار رفيقانا في حال شديد من الارتجاف ذعراً لأنهم يقتل بعضهم البعض الآخر كما يقتلونك. لكن واحداً منهم اندفع كي يركب باتجاه الخيام ووجد أنهم من قبائل حليفة. جلب معه رفيقين جديدين لأنه هو ورفيقه رفضا المتابعة. ركبنا مدة 6 ساعات أو حوالي ذلك، ومن جديد رأينا خياماً و« اللعبة نفسها». وتحدث الرفيقان عن العودة ومغادرتنا. ولكن من جديد جعلنا واحداً منهم يذهب إليهم ويسأل أي عرب هم وكانوا لحسن حظنا الكبير من الغزالات وهم الناس الوحيدون ذوو الأهمية والسلطة في تلك الأرجاء. خيمنا معهم وأخذنا رفيقاً ممتازاً ـ رجلاً معروفاً جداً ـ اسمه ضاوي (Dawi). شعرنا معه بالأمان نسبياً، ولكن لو لم يكن معنا لكنا سلبنا من كل شيء معنا في هذين اليومين الأخيرين. في صباح اليوم الأول الذي نزلنا فيه للسقاية من بعض برك الماء الآسنة على نحو فظيع، وجدنا مجموعة كبيرة من قبائل المعدان (Madan) يملئون زقاق الماء خاصتهم من هناك. هؤلاء

القوم هم أسوأ الشياطين المعروفين. عرضوا على ضاوي 30 جنيهاً إن تركنا لأنهم لا يستطيعون أن يلمسونا طالما أنه معنا شيخ من الغزالات، خوفاً من الغزالات، كما تعلم. والبارحة بعد الظهر التقينا قافلة كبيرة من المعدان قادمة من مشهد (النجف) (Meshed)، وفي لحظة كان يحيط بنا رجال مسلحون أقوياء ألقوا القبض على جمالنا وأرادوا اناختها. لكن ضاوي ناداهم وعندما رأوه تركوا الجمال وانسحبوا. وهذا الصباح أطلق رجل مار كان يرعى بعض القطعان رصاصة من بندقية بين أرجل جمالنا. ركض ضاوي واحتج عليه قبل أن يرسل طلقة أخرى واحتججنا بصوت مرتفع على المعاملة التي عاملنا. « العدو لا يأتي راكباً في وسط السهل في وضح النهار»، قال علي: «إذا كنتم خائفين فالعادة هي أن تطلقوا رصاصة فوق رؤوس الراكبين حتى تعرفوا إن كانوا أصدقاء أم أعداء». اعترف أنه خالف(كَسَرَ) القاعدة، ومن جهتي ابتهجت لأنه لم يكسر ساق أي من الجمال. وحتى في هذه الليلة لا أعرف ـ أقسم بشرفي ـ ما إذا كنا آمنين في التخييم هنا على مسافة ساعتين من المدينة، لكن يبدو أن الرجال يظنون أن الأمور على ما يرام، وعلى أي حال هانحن هنا ! أطراف الصحراء دائماً عاصفة وصعبة. والقبائل ليست بدواً بل عرباً، وهو فرق هام جداً، لأن ليس لهم أنظمة وقوانين البدو. لكن هؤلاء الشيعة أسوأ بكثير من أي ممن قابلناهم في طريقنا كلها. بعد كتابة هذه الأسطر خطر لي أن أذهب واسأل عليًا إذا كان يظن أننا في أمان هذه الليلة. أجاب أنه لا يظن ذلك وأن فكره غير مرتاح. (يجب أن أقول إنه هو الذي اختار موقع التخييم بنفسه). سألته عما يظن من

الأفضل أن نفعل. قال إنه يظن أن من الأفضل أن نذهب إلى القرية. كان وقتها لا يزال هناك ساعتان للمغرب. حزمنا العشاء الذي كنا قد طبخناه في أطباق مخيمنا الجيدة، قوضنا الخيام وحمّلنا كل شيء في نصف ساعة وانطلقنا ! كانت العملية سخيفة، لكنني ظننت أنه كان سخفاً أكبر أن تحدث حادثة مؤسفة تلك الليلة في رحلتنا الصحراوية. عند الغروب تماماً وصلنا إلى قرية صغيرة من أكواخ من قضبان الوتل المظفورة وهنا خيمنا. استقبلنا القرويون بكياسة كبيرة وفي اعتقادنا أننا في أمان أخيراً.

---

(193)

إلى والدها: بغداد، 29 آذار 1914

نعم كنا في أمان ووصلنا إلى هنا دون أي حادثة. ذهبت من مشهد إلى كربلاء ـ النجف ومشهد هما الشيء نفسه ـ تناولنا العشاء وأمضينا المساء مع نائب قنصلنا ودخلنا بغداد في اليوم التالي. لقد تعرفت على معارف جدد: السيد تود رئيس شركة لينتش(لينج) وزوجته حبيبته الصغيرة الإيطالية. سأنزل عندهما عندما أعود من بابل. سأذهب إلى بابل غداً وأبقى ليلتين. أراداني أن آتي إليهما فوراً، لكنني فكرت أن أمضي عدة أيام في حرية تامة هنا أولاً. لقد رأيت جميع أصدقائي من بني وطني. اندفعوا إليّ ورحبوا بي ترحيباً حاراً مما أثلج صدري. لقد أصبحت بغداد مدينة كبيرة!

قد أبقى هنا أسبوعاً آخر أو حوالي ذلك عندما أعود من بابل. ثم عبر الصحراء العربية إلى دمشق ـ سفر سهل وآمن تماماً..... لقد كتبت إلى لويس ماليت أقدم نفسي له. أود أن أخبره حكاياتي وأسمع حكاياته. أحب بغداد وهذه البلاد أكثر من دمشق ولا أعلم متى سأكون هنا ثانية لذلك سأبقى مدة يوم أو اثنين آخرين. بالإضافة إلى أنني سأستلم بريداً آخر، وهذا أمر جيد... أو اثنين. إن الأمر غريب وممتع في البداية، ذلك الشعور أنك بأمان تام، لكن واحدنا سريعاً ما يفقد إدراكه ذلك.

---

(194)

إلى والدها: 23 نيسان 1914

أعلم أنني على بعد 11 يوماً من بغداد ولم أبدأ بإخبارك حكايتي بعد. لقد وجدت صعوبة في تمضية الأيام وكنت متعبة جداً في نهايتها بحيث لا أستطيع الكتابة. ذهبت من بغداد إلى فلوجة. على الفرات، بعد أن رتبت أمر مغادرة جمالي بغداد في اليوم السابق وأن يقابلوني في الفلوجة. في اليوم الذي غادروا فيه طلب علي مني طلباً لا مبرر له ـ أن آخذ أحد أقاربه معنا، وهذا القريب يرغب في الهروب من الخدمة العسكرية. رفضتُ وتوقف عليّ عن العمل. جلبه فتوح مع الجمال بصعوبة كبيرة في وقت متأخر من الليلة الماضية، وتبعاً لذلك لم يكونوا قد وصلوا عندما وصلت الفلوجة. وعندها جاءوا كان علي قد أحضر قريبه معه !

غضبتُ كثيرا وكان علي في مزاج متعكر ففصلته عن العمل فوراً كي يعود إلى بغداد مع قريبه. سبب لي كثيراً من المصاعب. تحملت الكثير بسبب المعرفة لكنني لم أستطع تحمل التمرد الكبير ولذلك وضعت حداً له. لذلك كانت مجموعتي تتألف الآن من فتوح وصياح وفلاح ـ الزنجي ـ وهكذا بقيت من دون دليل في الصحراء السورية. أسافر الآن خفيفة ومعي خيمتان محليتان وفراش على الأرض وليس معي أي أثاث أو أي شيء، وذلك من أجل السرعة. نصبنا مخيمنا الصغير على بعد نصف ساعة خارج الفلوجة في الصحراء قرب خيام الدليم ـ كان الطقس حاراً على نحو حارق، وبسبب الحرارة وقساوة الأرض (وهذا ما تعودت عليه) لم أنم كثيراً. وفي اليوم التالي ركبنا على طريق البريد إلى الرمادي على الفرات، حيث يسكن شيخ الدليم الكبير. ذهبت إليه فوراً فاستقبلني بحرارة وأنزلني في حديقة نخيله وقدم لي طعاماً جيداً ورفيقاً من أهل بيته : عُدوان وهو رجل فاتن. كانت الحرارة شديدة من جديد والضجة كبيرة بسبب الكلام وكان الناس يتحدثون، ونمت أقل من السابق. انطلقنا قبل الفجر واتجهنا إلى الناحية الجنوبية الغربية في الصحراء كي نخيم بجانب ينابيع أبي جير. وصلنا وسط عاصفة غبار وكانت درجة الحرارة 91 فهرنيت وكل شيء يدعو للاشمئزاز. كان اليوم التالي أفضل لكن حاراً كالسابق ومن دون عواصف غبار. ركبنا واتجهنا في الصحراء غرباً. يومان آخران، غرباً وإلى الجنوب قليلاً ـ ودرجة الحرارة انخفضت ـ شكراً لله ـ ووصلنا إلى طريق البريد وهنا التقينا بشيخ عنزة وأخذنا رفيقاً جديداً منه ـ اسمه عساف، وودعنا عدوان دون

رغبة منا. تابعنا في اليوم التالي إلى محيوير في وادي حوران حيث كنت منذ ثلاث سنوات. كان المكان مملوءاً بخيام قبيلة عنزة وجمالها ـ منظر بديع. وهذا يعني أيضاً أنني ومعي رفيق من العنزة سأكون في أمان تام. وبعد يومين آخرين وصلنا إلى شيخ العنزة الشرقيين كلهم ـ فهد بيه ـ وترجلت عنده وطلبت ضيافته. عاملني بطيب أبوي، وقدم لي الضيافة وقدم لي الطعام ونصحني أن آخذ رفيقاً ثانياً ـ رجلاً من الرولة ـ وهم العنزة الغربيون. قضيت بعد الظهر أرسم مخططاً لموقع أثري بجانبه ـ مدينة، بالفعل مدينة في قلب الصحراء السورية. لم يكن من الممكن رسم مخطط لغير البوابة المحصنة وما بقي كان أكواماً من الحجارة، لكنها تلقي ضوءاً غير متوقع على تاريخ الصحراء. من المؤكد أن ناساً كانوا يقيمون في أحد الأوقات في هذه الأرجاء. هبت عواصف رعدية طيلة الليل، والبارحة ـ عندما غادرت فهد ـ قمنا برحلة يوم فظيع بين أنياب ريح عاتية وعبر زخات غزيرة من المطر. لكن اليوم كان الجو بهيجاً. أتابع الطريق القديمة التي عثرت عليها وأنا مقتنعة أن توقعاتي مبررة. وصلنا إلى موقع أثري صغير عند منتصف النهار، وتوقفت لأرسم مخططاً له. أخبرني فهد أن الصحراء من المخيم إلى بخارى خلاء (فارغة) وذلك يعني أنه لم يكن فيها بدو يخيمون. أحب المخيمات المنعزلة والصحراء كلها بمفردي، لكن فيها عيب واحد هو أنطاك غير آمنة. برفيقينا من العنزة لن يمسسنا أحد بسوء من أي نوع كان، لكن هناك دائماً احتمال الغزو. من المحتمل جداً ألا يصيبونا بأي أذى، لكننا لا يمكن أن نكون متأكدين. لكن حتى الآن قمت

بدوري على نحو مرضٍ ويسرني كثيراً أن أكون بمفردي، كما أنا في هذه الأيام. لكنني متعبة، وتواقة لأجتاز هذه الأسفار، ونحن الآن نقوم بسفرات طويلة 9 و 10ساعات. أه ولكنها ساعات طويلة يوماً بعد يوم في البراري الفسيحة. كنت أعود أحياناً وأنا أقرب إلى الموت من الحياة، متعبة لا أستطيع الأكل وليس لدي من الطاقة إلا ما يكفي لكتابة مذكراتي. نحن الآن على ارتفاع حوالي ألفي قدم وبدأت أشعر بالتحسن.

في يوم 24 بدأنا يومنا برؤية شيء مستلق في الصحراء ورفرفة رهيبة لأجنحة كبيرة فوقه. لاحظ عساف أن هذا الشيء كان ثلاثة جمال ورجلين وكلهم موتى، قُتلوا منذ عشرة أيام ـ الغزو قابلَ الغزو، كما قال. . . . . وفي اليوم 25 وصلنا عند منتصف النهار إلى مخيم صلبة (صليب) وهي قبيلة غريبة[1] تحكي حكايات كثيرة عن أصلها. وقفنا عند خيامها لشراء بعض الزبدة، وسررت برؤيتهم والتقاط الصور لهم. أنهم صيادون ماهرون، كان

---

(1) الصلبة أو الصليب يقول أوبنهايم في كتابه من البحر الأبيض إلى الخليج ج1 ص 220 وما بعدها. «ينتمون هؤلاء إلى قبيلة من أغرب القبائل ويختلفون في شكلهم وفي طريقة حياتهم في كثير من النواحي عن البدو العرب. فهم غالباً أصغر من العرب ويعيشون بصورة رئيسية من صيد الغزلان التي يصنعون من جلودها ملابسهم. ويتميز بعض نسائهم بجمال رائع. لا يملك الصليب الخيول أو الإبل إلا نادراً بل يركبون غالباً على حمير صغيرة ذات قدرة كبيرة على التحمل، ولا يربّون الغنم أو الماعز إلا بأعداد قليلة وبين الحين والآخر فقط. ويعيش الصليب في وئام مع جميع قبائل الصحراء ويقدمون لقاء كرم الضيافة الذي يلاقونه لدى الجميع ولقاء عدم التعدي على أملاكهم الشحيحة، خدمات الدلالة في كل مكان، إذ لا احد يعرف الصحراء جيداً كما يعرفها الصليبي.. ((ماجد شبر)).

أحد الرجال مرتدياً ثوباً جميلاً من جلود غزلان. ناشدونا كي نخيم معهم، لكننا تابعنا مدة ساعتين وخيمنا بمفردنا. وفي اليوم 26..... في منتصف فترة الصباح التقينا رجلاً يسير وحيداً في الصحراء. اتجهنا نحوه وخاطبناه بالعربية، لكنه لم يجب. قال عساف ـ رفيقي ـ إنه يظنه درويشاً فارسياً. تحدثت إليه بالتركية وببعض الكلمات الفارسية التي استطعت أن أجمعها، لكنه لم يجب. أعطاه فتوح بعض الخبز فقبل وابتعد عنا في البراري تحت المطر، إلى أين؟ لكننا تابعنا نحو الجبال وضللنا طريقنا، فقد اتجهنا بعيداً نحو الشمال، حتى التقينا أخيراً ببعض الخيام والقطعان، قبيلة من العنزة وأرشدونا. كنا على مرأى من بالمايرا، التي كانت تستلقي على بعد حوالي 10 أميال منا في خليج من التلال. عندما يراها المرء هكذا من الصحراء يرى مدينة الصحراء، وليس المدينة الرومانية ـ تدمر وليس بالمايرا. تضايقنا الرياح كثيراً، سواء أكنا نسير أو في المخيم، عندما تغلفنا بغطاء من غبار. إننا نسافر ساعات طويلة، وآه! إنني مرهقة.

---

(195)

2 ايار 1914

ركبنا عبر الجبال، في طريق جميلة لكنني كنت متعبة لا يمكنني التمتع كثيراً. وقطعنا ساعات طويلة: اثنتا عشرة ساعة في

اليوم. في يوم 30 دخلنا عذرا[1] وخيمنا هناك، في البقعة نفسها حيث ركبت ظهر ناقتي في اليوم الذي انطلقت فيه من دمشق، منذ أربعة أشهر ونصف. وفي صباح اليوم التالي ـ أمس ـ عبر بساتين وحدائق إلى دمشق. أظن أنني سأستقل قارباً إلى القسطنطينية يوم 8، وأصلها يوم 12، أبقى هناك أسبوعا أو أقل،آتي بالقطار، وأصل لندن حوالي 24.

[يشير وصولها إلى دمشق في رحلة العودة إلى نهاية رحلات جيرترود في الصحراء مع قافلتها].

قدم الدكتور ديفيد هوغارث رئيس الجمعية الفلكية الجغرافية أمام الجمعية، يوم 14 نيسان 1928، وصفاً لرحلة جيرترود الخطرة إلى حائل، ومنها أقتبس ما يلي :

«كانت رحلتها مغامرة رائدة لم تضع خريطة لسلسلة من الآبار التي لم تعرف ولم تحدد أمكنتها من قبل فحسب، بل ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ حدود الصحراء السورية تحت الحكم الروماني والتدمري والأموي. . . . . لكن ربما تتألف النتيجة الأكثر قيمة في القدر الكبير من المعلومات التي جمّعتها عن العناصر

---

(1) قبر الصحابي حجر بن عدي. كان في الجيش الذي فتح الشام، وفي الجيش الذي فتح القادسية، وشهد الجمل مع علي، وكان أمير كندة يوم صفين، وأمير الميسرة يوم النهروان، وهو الشجاع المطرق الذي قهر الضحاك بن قيس في غربي تدمر. ثم كان أول من قتل صبراً في الإسلام. قتله وستة من أصحابه معاوية بن أبي سفيان سنة 51 في «مرج عذراء» بغوطة دمشق على بعد 12 ميلاً منها. وقبره إلى اليوم ظاهر مشهور، وعليه قبة محكمة تظهر عليها آثار القدم في جانب مسجد واسع، ومعه في ضريحه أصحابه المقتولون. (ماجد شبر).

القبلية التي تقع ما بين سكة حديد الحجاز على أحد الجانبين والسرحان والنفود من الناحية الأخرى، وخصوصاً عن مجموعات الحويطات، التي استخدمها لورنس ـ اعتماداً على تقاريرها ـ استخداماً رائعاً في الحملات العربية في عامي 1917 و 1918.

«كانت إقامتها في حائل مثمرة من حيث المعلومات السياسية التي تتعلق بالتاريخ الحالي والحالة الحقيقية لبيت الرشيد، وكذلك علاقاتها الحقيقية والمحتملة مع القوة المنافسة لأبناء سعود. ثبت أن معلوماتها كانت ذات قيمة كبيرة أثناء الحرب، عندما وضعت حائل نفسها مع العدو وكانت تهدد جانبنا الفراتي. أصبحت مِس بل منذ 1915 وما بعد ذلك مترجمة لجميع التقارير التي جاءت من وسط الجزيرة العربية».

وقال الدكتور هوغارث أيضاً في إشارة إلى عودتها عبر الحماد إلى دمشق من بغداد:

«كانت هذه الرحلة، بالنسبة إلى امرأة أوروبية أخرى، في الأيام التي سبقت التفكير بخدمات الآليات في الصحراء، تبدو مجازفة كبيرة. لكن إلى مِس بل التي دخلت نجد، كان عبور الحماد يبدو خيبة أمل.

[. . . .هذه الرحالة المنهَكة ـ التي كتبت في نيسان 1914 مذكراتها ورسائلها إلى بغداد ـ لم يكن لديها أدنى شك، أنه في أقل من سنة، ستصبح المعرفة والخبرة التي اكتسبتها أثناء الأشهر الأربعة الماضية ثروة وطنية. ولم تستطع أن تتنبأ ـ حتى بعد الحرب ـ أن نجد الشمالية ستعود إلى الغموض

الذي خلصتها منه. حتى هذه السنة الميلادية ـ 1927 ـ تبقى زيارتها لحائل من قبل رحالة أوروبية منذ ثلاث عشرة سنة، الأخيرة التي وضعت في السجلات العلمية].